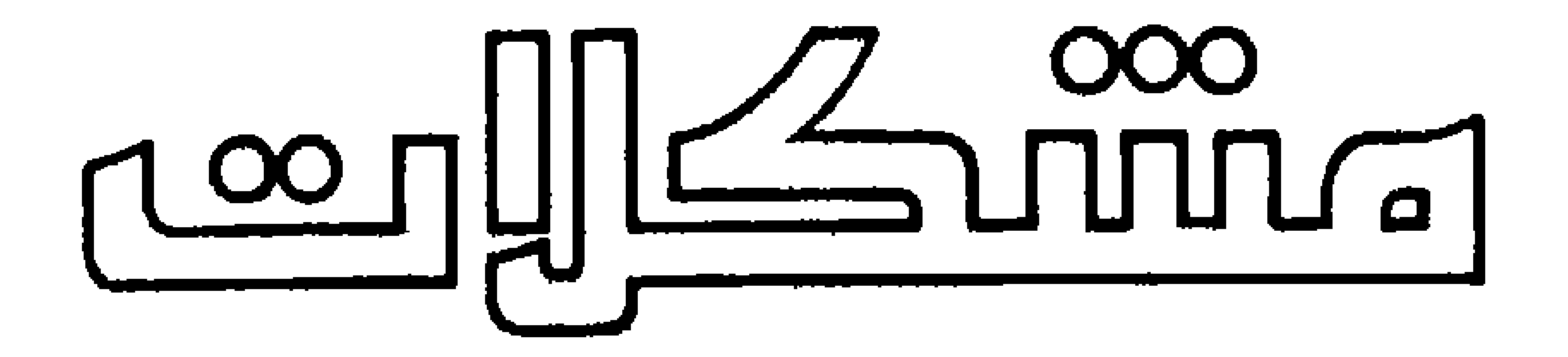


١

مشكلات في طريق الحياة الإسلامية

محمد الغزالي



في طريق الحياة الإسلامية

محمد الغزالي



سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية
والشؤون الدينية، في دولة قطر.

مشكلات

في طريق

الحياة الإسلامية

جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ .

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنة

□□ إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فهذا كتاب « الأمة » الأول وهو باكورة أعمالها ، في مجال المساهمة في تحقيق الوعي الثقافي الإسلامي ، الذي عزمت على المضي به - إلى جانب عطائها الصحفي - للوصول إلى إعادة ترتيب العقل العام لمسلم اليوم ، وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة ، وعجزه عن مواجهة مشكلاته ، وتحدياته ، الداخلية منها والخارجية ، على ضوء رؤية إسلامية ذات دراية وفقه ، بعيداً عن المواقف والتصرفات الانفعالية الخطابية غير المتوازنة التي لا تخرج عن كونها ومضات آنية تحرك العاطفة ولا تهدي العقل ، ومن ثم تتركها لعبث الأهواء وتقاذف الأمواج .

لابد من إعادة ترتيب للعقل الاسلامي المعاصر ، حتى يتمكن من تحقيق النظرة الكلية للأشياء ، والقدرة على تصنيف المشكلات ، ووضع سلم منضبط لقضية الأولويات ، وتوفر الجهود والطاقات ، وتوجهها إلى المجالات المجدية من خلال الصورة العالمية بكل تعقيداتها وتشابكها ، وتطوير وسائل الدعوة إلى الله بما تقتضية الحال ، واختبار الأسلحة القديمة ، لأن بعضها أصبح يتحرك في الفراغ ، يصول ويجول في معارك وهمية انتهت بأصحابها وأسلحتها وقد تغيرت الحال . .

لقد تبدلت مشكلات العالم ، وتبدلت أسلحته ، ونحن مازلنا نصرُّ على مواجهة المشكلات الجديدة ، والدخول في المعارك الجديدة ، بالأسلحة والوسائل القديمة ، التي أقل ما يقال فيها : إنما وجدت لغير هذه المعارك وغير هذه المشكلات .

ومازالت تلك الوسائل تُسْلِمنا من هزيمة إلى أخرى ، على مختلف الأصعدة ، ولولا بعض الحصون القديمة التي بُنِيَتْ لنا نلوذ بها ونحتمي فيها لأصبحنا أثراً بعد عين .

لابد من انتهاء أحلام اليقظة في حياتنا ، والتي مازالت تسيطر على قطاعات كبيرة من عالم المسلمين اليوم ، والوصول إلى اليقظة غير الحالمة ، بكل مقوماتها ، ونستطيع أن نقول إلى حدٍ بعيد : إن الجيل المسلم اليوم أحْسَن الدخول في سن التمييز ، لكنه إلى الآن لم يحسن الخروج منه ، والانتقال إلى مرحلة الرشد التي تلي مرحلة التمييز ، لقد كان عطاء سن التمييز طيباً ، حقق لنا الاعتزاز بهذا الدين ، والاستعلاء به والثقة بقدرته ، بعد أن كادت تغتالنا مذاهب الشياطين ، لكن هذا الإيمان يقتضي حركة منضبطة مع مبادىء الإسلام ، يقتضي سلوكاً رشيداً يأخذ

باعتباره كل الظروف المحيطة إلى جانب الوسائل المتاحة ، وليست **الاستراتيجية في حقيقتها إلا القدرة على التصرف بالامكانيات المتاحة من خلال الظروف المحيطة** ، ولا تخرج الحكمة التي أُمِرْنا أن ندعو إلى الله بها ــ بقوله : .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِه وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل : ١٢٥)

.... عن حسن التقدير وحسن الأداء ، والقراءة الصحيحة للظروف والتعامل معها ، إنها وضع الأمور بمواضعها ، ووزن الأشياء بموازينها ، **﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ومَن يُؤْتَ ٱلحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الألْبَابِ ﴾(٢٦٩ البقرة)**

والرسول القدوة خاطب الناس على قدر عقولهم ، وعُرِّفَت البلاغة : بأنها مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال .

والشيخ **محمد الغزالي** الذي استجاب مشكوراً للمساهمة معنا ، ولتقديم كتاب « **الأمـة** » **الأول** ، غني عن التعريف ، **فهو يعتبر بحق أحد شيوخ الدعوة الإسلامية الحديثة** وفقهائها ، **يحمل تاريخ نصف قرن** أو يزيد من العمل الإسلامي ، وهو أحد معالم الحركة الإسلامية الحديثة ورموزها ، **رافق نشوء الحركة الإسلامية الحديثة في مصر** ، كما أنه شارك في رسم سياستها ، وكان على مدىٰ هذه الأعوام الطوال : العقل المفكر ، والقلم المسطر ، واللسان الناطق ، حتى ليمكننا القول : **بأن مؤلفاته التي تشكل**

بمجموعها جانبا هاماً من مكتبة الدعوة الإسلامية الحديثة ، يمكن اعتبارها سجلاً لتاريخ الدعوة الفكري إلى حد بعيد ، وبذلك نستطيع أن نترسم الملامح الرئيسية للدعوة الإسلامية الحديثة وتطورها من خلال هذه المؤلفات . ذلك أن فهمه للقضية الإسلامية لم يكن فهم مؤلفات وأوراق بعيدة عن دخان المعركة ، ومُثار نَقْعِها ، وجلبة سلاحها ، وإنما جاءت كتاباته من أرض المعركة وبأحد أسلحتها . . .

لم تكن كتاباته شبيهة بعمل المراسل الحربي الذي يختار الأرض الباردة للأحداث ، يصفها وقد يخطىء وصفها ، وإنما كان فيها الجندي المقاتل ، والقائد الرائد ، والناصح الأمين . .

إن معظم الذين كتبوا ، ويكتبون عن الإسلام تَعوزُهم المعاناة الدائمة ، والحس الصادق ، والعقل الراجح ، والاطلاع الواسع ، وحسن الفقه لمعركة الإسلام وخصومه . معظم هؤلاء الذين كتبوا عن أدواء العالم الإسلامي ، جاءت كتاباتهم أشبه بملامح رئيسية ، ووصف لأعراض المرض ، كان ينقصهم إلى حد بعيد خبرة المرض بدقة ، ومن ثم وصف العلاج له . .

كانت كتابة الشيخ الغزالي تحمل عاطفة الأم على وليدها المريض الذي تخشى أن يفترسه المرض ، وبصرة الطبيب الذي يقدم العلاج ، وقد يكون العلاج جراحة عضوية إن احتاج الأمر ذلك . .

وكانت كتبه وكتاباته تواجه التحديات الداخلية والخارجية على حدٍ سواء ، مصداقاً لقول الرسول ﷺ فيما يرويه البيهقي :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ،

وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وكأني بكلام الرسول ﷺ يجمل في هذا الحديث ـ وقد أوتي جوامع الكلم ـ التحديات التي لا تخرج بمجموعها عن هذه الثلاثة : تحريف الغلاة ، وانتحال أهل الباطل ، وتأويل واجتهاد الجاهل . ولابد من المواجهة في هذه الجبهات الثلاث . أما الالقاء بالتبعة على واحدة منها دون سواها واعفاء النفس من جرأة المواجهة في الجبهات الأخرى فهي النظرة الجزئية التي يعاني منها مسلم اليوم .

وحين نَعْرِض لمؤلفات الشيخ الغزالي التي رافقت خطوات الدعوة الإسلامية الأولى في العصر الحديث ، والتي جاءت تسدد طريقها ، وتبصرها بأعدائها ، وتحذرها من المزالق التي ترسم لها ، في الوقت الذي كانت تصطرع فيه الأفكار والمبادىء لإيجاد البدائل الثقافية للاسلام ، وتكريس فصل الدولة عن الدين ، نجد الشيخ الغزالي في الخندق الأول حيث أدرك الثغرات التي يمكن أن يتسلل منها أعداء الإسلام ، من خلال واقع اجتماعي ليس له من الاسلام سوى الاسم ، لذا نرى انه من أوائل من كتب عن « الاسلام والأوضاع الاقتصادية » « والاسلام والمناهج الاشتراكية » وكان كتابه « الإسلام المفترى عليه بين الرأسماليين والشيوعيين » أول صيحة في التميز الإسلامي ، كما أنه من أوائل من تنبه إلى الخطورة والأمراض التي يخلفها الاستبداد السياسي ، ولئن كانت كتاباته الأولى يمكن تصنيفها في مجال الأدب الدفاعي إن صح التعبير ، إلا أنه لم يقتصر على هذا اللون من المواجهة الذي اقتضته الظروف من خلال الوسائل المتاحة ، بل تجاوز ذلك إلى تأصيل الكثير من القضايا الثقافية في الفكر الإسلامي . .

كتب في العقيدة وهي رأس الأمر كله وكتابه « عقيدة المسلم » من الكتب

المبكرة جداً في هذا المجال ، وكتب في السلوك الإسلامي ذلك أن الخلق هو الغاية من البعثة المحمدية أصلاً ، والرسول ﷺ يقول : « **إنما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارِمَ الأخلاقِ** » كما أنه تنبه لقضية خطيرة كانت وما زالت تهدد مجتمعات المسلمين ألاَ وهي قضية التعصب والتسامح التي وضح حدودها ، وبين ضوابطها ، حتى لا تعبث بها الأهواء ، ويأكل بها الأعداء ، والتي ما زالت تطل برأسها كلما سنحت لها الفرصة لتبدأ عملية التآكل الداخلي .

وبهذه المناسبة فمن الوفاء الفكري أن نعرض لكتاب **الشيخ الغزالي** « **من هنا نعلم** » الذي رد فيه على الشيخ خالد محمد خالد في كتابه « من هنا نبدأ » **والذي بدأ فيه رحلة التضليل الثقافي ونسب للاسلام ما ليس منه ، ولئن أدركت الشيخ خالد في الأيام الأخيرة توبة الفكر من هذه القضية الخطيرة في كتابه « الدولة في الإسلام » وجاءت هذه التوبة بعد مضي جيل كامل كاد يقع فريسة الضلال والتضليل** ، فلابد أن نذكر هنا **الشيخ الغزالي** وهو يرد انتحال المبطلين ذلك أن التوبة الآن لا تفيد إلا صاحبها وأمره إلى الله . . بعد أن أصبح التصور الإسلامي في هذه القضية من المسلمات ، وبعد أن أصبح الكتاب تاريخيا ، وهيهات أن يسترد التاريخ . . من هنا تأتي قيمة كتاب الغزالي « **من هنا نعلم** » الذي بنى الجدار النَّفسِي للشباب المسلم ، وحال دون اقتحامه ومغالطته .

ولسنا الآن بسبيل الكلام عن مؤلفات **الشيخ الغزالي** التي قد تربو على خمسة وثلاثين كتاباً ، والتي تمثل إلى حد كبير حيزاً في مجال العقيدة والدعوة والسيرة والحركة والفكر والثقافة من مكتبة المسلم في العصر الحديث ، لا يمكن الاستغناء عنها في التأريخ لفكر الدعوة الاسلامية المعاصرة وتطوره وطبيعة المواجهة .

لقد قدم الكثير من الكتابات في مجال المناصحة للدعوة الاسلامية نفسها ، تمثل وجهة نظره في مشكلات الدعوة والأمراض التي أصيبت بها .

وفي اعتقادنا أن وجهة النظر هذه وغيرها تعتبر علامة صحة في مسيرة الدعاة ، فهي تغني الحركة وتطور رؤ يتها ، وتنقذها من آفة الحزبية التي يمكن أن تدركها لسبب أو لآخر ، ولئن كانت بعض الملاحظات شديدة ، وكان بعضها الآخر محل نظر إلا أنها تمثل التنوع في النظر ، وليس التباين والتضاد ، تمثل الاختلاف وليس الافتراق . . .

ولعل من أبرز الأمور التي انتهى إليها بعد هذه الجولة الاطلاعية ذات المساحة العريضة في مختلف المجالات : **أن مشكلة المسلمين الرئيسية تكمن في التمزق الثقافي الذي عرض له ، وبين أسبابه في كتابه الأخير « دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين » فإذا سَلِم للأمة عالم أفكارها ، فقد سلم لها كل شيء ، وإذا افتقدت وحدتها الفكرية فقد خسرت كل شيء ، ووقعت في منطقة العجز الحضاري كما هو حال الأمة المسلمة اليوم** ، ورحم الله المفكر **مالك بن نبي** الذي كانت صيحاته وتنبيهاته مبكرة ومتكررة للعناية بالمشكلة الثقافية التي اعتبرها أُسَّ القضية .

وبعد فإن الكتاب الذي تقدمه « **الأمة** » باكورة لمساهماتها الثقافية في هذا المجال ، كما قدمنا ، يعرض لمجموعة مشكلات قديمة جديدة تعيق نهضة المسلمين اليوم ، ذلك أن المدافعين عن الإسلام لا ينقصهم غالباً الحماس والاخلاص ، وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه ، إنهم يظنون أن بإمكانهم إزالة علل المسلمين في أيام معدودات ، وما على الشباب إلا أن يقدم ويقاتل ، ويحطم ما أمامه من عوائق ، وسوف يتم له النصر . !!

وان الاستعجال حمل متاعب كبيرة ، وخسائر ثقيلة للدعوة الاسلامية ، بل ربما زاد خصومها قوة وتمكيناً ، لذلك لابد من بصيرة فاحصة متعمقة ، تتدبر ثقافتنا ، وتنقي منابعها ، وتنقد مستوانا الحضاري الأخير ، وتستكشف أسباب هبوطه ، وتوقف التراجع الحضاري الذي بدأ من أوائل القرن الثالث عشر للهجرة .

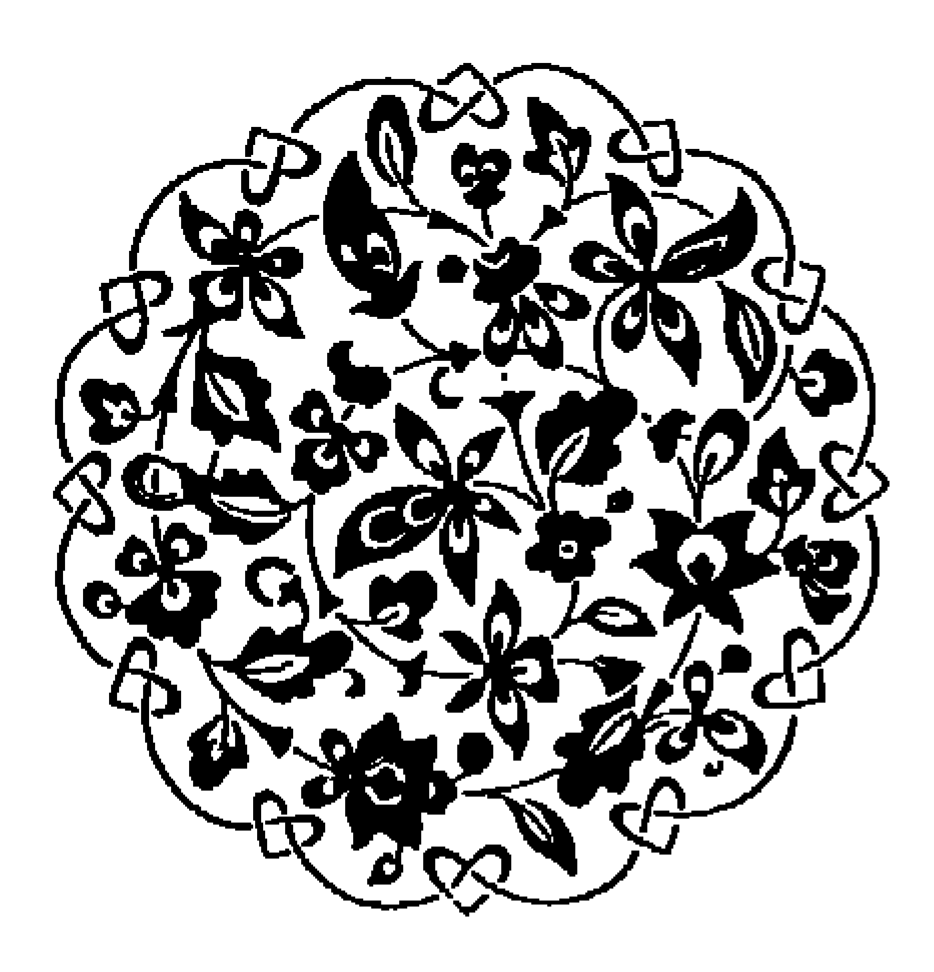
إن هناك أكثر من سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه لا نعرف منها شيئا ، فهل يخدم هذا عقيدة التوحيد ؟!

ونحن لا ندعي هنا أن ما جاء في الكتاب يمثل الحق المطلق ، وإنما هي وجهات نظر جديرة بالدراسة والانتفاع ، وإغناء الرؤية الاسلامية المعاصرة .

وهذه المناسبة تذكرنا بقولة الإمام مالك رحمه الله :

كل انسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر ، يعني رسول الله ﷺ المعصوم ، فهو المسدد بالوحي ، المؤيد به .

نرجو الله أن يأخذ بنواصينا إلى الخير ، وأن يرزقنا السداد في الرأي ، والاخلاص في العمل ، وأن يجزل مثوبته للشيخ محمد الغزالي على جهده وجهاده ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . □□



مقدمة

□□ أتابع النشاط الإسلامي المعاصر بحب وخوف .. حبّي له لأنني مسلم أريد للحقّ الذي أعتنقه أن يسود ، وأن يقوم من عثرته التي طالت ! وخوفي عليه لأن الأعداء خبثاء أقوياء أغنياء يريدون الاجهاز على الدين الجريح ، وانتهاز الفرصة التي لاحت بعد طول انتظار أو طول تدبير ... !

إن المدافعين لا ينقصهم غالباً الحماس والإخلاص وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه ..

إنهم يحسبون أن حال المسلمين اليوم وَليدُ عللٍ عارضة ، ومن السهل إزالتها في أيام معدودات ، أو على الأكثر في بضع سنين من حياتهم هم .. ثم يعود المسلمون إلى مجدهم الأول أيّام الصحابة والتابعين .

وما على الشباب إلاَّ أن يقدم ويقاتل ويحطم ما أمامه من عوائق ، وسوف يبتسم له النصر بعد مرحلة أو مرحلتين !!..

وهذا الاستعجال كان وراء متاعب كثيرة وخسائر ثقيلة للدعوة الاسلامية ، بل ربما زاد خصومها تمكيناً وضراوة ... !

إن حالة المسلمين اليوم تخالف حالة الألمان الذين خاضوا حرباً عالمية ثانية بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولىٰ ، ولمَّا تمرّ على هذه الهزيمة عشرون سنة !

إننا نحن المسلمين نتقهقر من عدة قرون ، وكأننا في معركة انسحاب من أوائل القرن الثالث عشر للهجرة ، وقد قاوم الأجداد والآباء والأعقاب ، وورثنا نحن هذه المقاومة الباسلة النبيلة ، وكسبنا مواقع وخسرنا أخرى . .

وأرىٰ أنه لابدَّ من دراسة شاملة لأسباب تقهقرنا المدني والعسكري ، وما هي العناصر الحيوية التي فقدناها حتى دهانا ما دهانا ؟ لابد من بصيرة فاحصة متعمقة تتدبَّر ثقافتنا وتُنقِّي منابعها ! وتنقد مستوانا الحضاري الأخير ، وتستكشف أسباب هبوطه !

أكنَّا حقاً على الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها ، أم غلب علينا داء الأمم الاولىٰ فشردنا عن الصراط المستقيم ؟

وعندما نريد العودة فما أرشدُ الوسائل ؟

إن إقامة دين الله شيء ومجرد الاستيلاء على الحكم بطريقة أو بأخرىٰ شيء آخر . . .

إن إقامة دين الله تعني قبل كل شيء تأسيس علاقة زاكية بين المرء وربِّه ، منزَّهة عن طلب الدنيا والتَّشبُّع من لذائذها ، والاستعلاء في أرجائها .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً . . . ﴾ (القصص : ٨٣) .

كما تعني الاسهام في بناء مجتمع عالمي يعرف المعروف ، وينكر المنكر ، ويحترم الحقوق ، ويوقِّر ربَّ العالمين . . !

وفي تاريخنا الثقافي والسياسي زاد كافٍ لمن كان له قلب ، غير أن هزائم شتى تصيب المجاهدين في سبيل الله لضعف التجربة وقلة الخبرة ، أو لفقر

شديد في العلم الصحيح بكتاب الله وسنة رسوله . .

وفي هذا الكتيب نماذج لقضايا خاضها أو سيخوضها العاملون في الحقل الاسلامي أحببت أن أشرحها على ضوء ما بلوْتُ من تاريخنا الحاضر والغابر ، لعلها تعصم من مزالق ، وتنبِّه إلىٰ حقائق وتقود إلىٰ الخير . . .

وقد تتشابه الموضوعات في بعض ما أكتب ! ومع ذلك ففي الجديد مزيد من سعة العرض ووفرة الحجج !

وإني لأشكر أسرة مجلة « الأمــة » إذْ رغبتْ إليَّ بهذا العمل ، وأدعو الله تبارك وتعالى أن ينفع به ، وأن يجعله في موازين الحسنات .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَـا وَإِلَيْـكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة : ٤) .

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة : ٥) □□

الدوحـــة صفر سنة ١٤٠٢هـ

محمـــد الغـــزالي

الفصل الأول

صور جديدة وعديدة للأعمال الصالحة

كانت الخصومات الكبيرة تُحَلُّ قديماً بمبارزات فردية يلتقي فيها الخصمان ولا يزال أحدهما يصاول الآخر حتى يصرعه ، ويدع جثته في العراء ، كما قال شاعر عربيّ :

والله لو لاقيْتَني خالياً لآب سيفانا مع الغالب !

وربما بدأ قادة الجيوش الحرب بهذه المبارزات ، قبل أن يتزاحف الجمعان ، ويتلاحم العدوَّان ، وتنجلي المعركة عن فوز هذا أو ذاك . .

ثم تسقط بعد ذلك القرىٰ والمدن في أيدي المنتصر . .

المهم أن الخسائر الحربية كانت محدودة ، وإن كانت النتائج السياسية والاقتصادية والدينية بعيدة المدىٰ . .

أما الآن فإن الحروب تشارك فيها ابتداء شعوب كثيفة ، ويحشر لها الشباب والشيب والرجال والنساء ، وتدور رحاها على سواء في البر والبحر والجو ، ويتعرض لمغارمها مَنْ في المقدمة ومن في المؤخرة وترصد لها الألوف المؤلفة من الجنيهات ـ قبل اللقاء المباشر ـ وتُنسَّق لها أشتات القوىٰ المادية والأدبية .

فالناس قبل الحرب الساخنة في حرب باردة ، وقبل الالتحام الدامي في تأهب واستعداد . .

وعندما نرمق الشرق الشيوعي أو الغرب الصليبي نجد كلتا الكتلتين متحفزة متجهزة حتىٰ لا تؤخذ بغتة ، وحتى إذا دقت طبول الحرب كان كل فريق مبصراً بحدَّة ما يفعل كي ينجو أو يغلِب . . !

والفرد في الشرق أو في الغرب يدري واجبه ، ويحمل الأعباء الملقاة عليه برضى ، ويعلم أن ذلك قدره فقلما يزيغ عنه . .

موقف المسلم في هذا العصر ..

تُرىٰ ما موقف المسلم في هذا العصر ؟ ماذا يصنع لرسالته في زحام هذه الحياة ؟

إن ألف مليون مسلم بدأوا القرن الخامس عشر من تاريخهم في ظروف عاصفة .

أعداؤهم يعالنون حيناً ويواربون أحياناً بنيتهم تجاه الاسلام ، وسواء صرَّحوا أو لمَّحوا فإن أعمالهم تصرخ بما يبيتون !

إنهم يريدون القضاء عليه ، وقد رسموا الخطط وبدأوا التنفيذ .

والليالي الحبالىٰ تتمخض عن أحداث كئيبة ، فأطرافنا تنتقص يوماً بعد يوم ، بل صميمنا مهدد بالضياع ، والاستعمار الثقافي ملحٌّ في محو شرائعنا

وشراعنا ، يعينه كُتَّاب مرتدُّون ، أو ساسة مبغضون لكتاب الله وسنة رسوله . .

ونعيد سؤالنا مرة أخرى :

ما موقف المسلم في هذا العصر الذي تطورت فيه الحروب فانتظم جهازها كل شيء ، وتوقح فيه الأعداء حتى قرروا نفض أيديهم منَّا والبناء على أنقاضنا . . ؟

إنه لابد أولاً من إعطاء صورة سريعة لعلاقة المسلم بدينه ، أو لمطالب هذا الدين من تابعيه . .

المسلم إنسان يعرف ربه معرفة صحيحة ، ويقيم صلته به ـ سبحانه ـ على مبدأ السمع والطاعة . .

وهو يتعاون مع إخوان العقيدة على تأسيس مجتمع يلتزم بإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .

وهو ـ مع هؤلاء الإخوة ـ ينشئون الحكومة التي تحمي هذا المجتمع ، وتطوِّع شؤون الحياة كلها ، لإثبات صبغته وإعلاء شرعته .

ذاك في الداخل ، أمَّا في الخارج : فالدولة الإسلامية صاحبة فكرة ترتبط بها ، وتتيح لكل ذي لب أن يتعرف عليها ، وتصادق أو تخاصم على ضوء من مواقف الآخرين بإزائها . .

فمن ترك الفكرة تعرض نفسها لم يَرَ منَّا إلاَّ الخير ، ولا إكراه في الدين ، ومن أقام في وجهها العراقيل جفوناه ولا كرامة . .

وتطويع الحياة لخدمة الدين عمل شعبيٌّ وحكوميٌّ في آن واحد ، وهو يحتم توجيه النشاط الفردي والجماعي لخدمة الرسالة العامة وتحقيق غاياتها . .

والمسلم منذ صلاة الفجر يتحرك في الموضع الذي اختاره القدر له ليعلي كلمة ربه ، وإذا كان كفاح العقائد في هذه الأيام قد فرض تجنيداً إجبارياً على كل شيء ، فإن مناصرة **الاسلام** لن تشذ عن هذه القاعدة .

ومن ثم فإن كل مسلك يجعل المجتمع الاسلامي أضعف من نظيره الشيوعي أو اليهودي أو الصليبي يُعـدُّ خيانة أو ارتداداً . . وكل تفريط مدني أو عسكري في خدمة الاسلام فهو عصيان لخوف العقبى .

إن الكدح لله هنا يتجاوز المسجد ليتناول الحقل ، والمصنع ، والمرصد ، والدكان ، والديوان ، والبر ، والبحر ، وما يكتب وما يسمع ، وقد يتناول خطرات النفوس وأحلام النيام . .

الاسلام رسالة توجب على معتنقيها أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة ، وأقدر على النجاح .

وكل ما يعين على ذلك فهو دين ، أو كما يقول علماء الأصول : ما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب . .

حقيقـــــــــــة العبـــــــــــادة . .

وعندما ننظر إلى العبادات السماوية نجد أداءها في اليوم والليلة لا يستغرق نصف ساعة ، ونجد تعاليمها تستغرق صفحة أو صفحتين ، ويبقى الزمان بعد ذلك واسعاً ، والمجال رحباً لفهم الحياة واكتشاف طاقاتها وتسخيرها كلاً وجزءاً لخدمة الدين .

وكل جهد يبذل في ذلك يُسَمَّى شرعاً : عملاً صالحاً ، وجهاداً مبروراً ، وضميمة إلى الإيمان تؤهل المرء لرضوان الله . .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُون ﴾ (الأنبياء : ٩٤) .

ومن المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا عجزة في الحياة ، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح ، وإبرة

الخياط ، وقلم الكاتب ، ومشرط الطبيب ، وقارورة الصيدلي ، ويصنعها الغواص في بحره ، والطيار في جوه ، والباحث في معمله ، والمحاسب في دفتره ، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء ، ويجعل منه أداة لنصرة ربه وإعلاء كلمته !!

وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظاً عندما خبنا في ميادين الحياة ، وحَسِبنا أن مثوبة الله في كلمات تُقال ومظاهر تُقَام . .

تخيل رجلاً وصل إلى الحكم وقال لأتباعه :

أمامكم أجهزة الدولة أديروها لإثبات وجودكم وتحقيق هدفكم . . فإذا هم يتركون الأجهزة عاطلة ، ويجتمعون بين الحين والحين أمام قصره للهتاف باسمه ! إنه لو طردهم من ساحته ما بغى عليهم ، ولو أمر الحراس بضربهم ما ظلمهم ، إنهم مخربون لا مخلصون !

ومن قديم رأى نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم في الصلوات والأذكار ، يُبدئون ويعيدون ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة ، فمن ينصر الله ورسله ؟ إذا كان أولئك جهَّالاً بالحديد وأفرانه ومصانعه ؟ والله يقول في كتابه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (الحديد : ٢٥) .

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته ، لا نعرف منها شيئاً ، فهل تُخْدَم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها بهذا العجز المهين . . ؟

إنه لو قيل لكل شيء في البلاد الاسلامية : عُدْ من حيث جئت ، لخشيت أن يمشي النَّاس حفاة عراة ، لا يجدون ـ من صنع أيديهم ـ ما يكتسون ،

ولا ما ينتعلون ، ولا ما يركبون ، ولا ما يضيء لهم البيوت . . بل لخشيت أن يجوعوا لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتي من الحبوب ! !

إن الله لا يقبل تديناً يشينه هذا الشلل المستغرب ، ولا أدري كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعاني من هذه الطفولة التي تجعل غيرنا يطعمنا ويداوينا ؟ ! ويمدنا بالسلاح إذا شاء . .

إنها طفولة تستدعي الكافل المهيمن ، والحديث عن إنجاح رسالة ما ـ ونحن في طوقها ـ حديث يثير الهزء ، فما للأطفال وتكاليف الأبطال ؟ !

ولقد راقبت الكثير من الشبان الذين يستحبُّون خدمة دينهم ، وأفزعني أن الخطل الموروث يهيمن عليهم ، إنهم لا يحسبون عرق الجبين في البحث عن البترول ، أو تلوُّث الجبهة وراء آلة دوَّارة ، لا يحسبون ذلك جهاداً ، إن الجهاد في وهمهم تلاوات وأوراد ، وتكرار ما تيسَّر من ذلك ما دام في الوقت متسع . .

وقد رأيت صيدلياً مشغولاً ببحث قضية « صلاة تحية المسجد » في أثناء خطبة الجمعة ، ومهتماً بترجيح مذهب على مذهب ، فقلت له : لماذا لا تنصر الاسلام في ميدانك ، وتدع هذا الموضوع لأهله ؟

إن الاسلام في ميدان الدواء مهزوم ! ولو أراد أعداء الاسلام أن يسمِّموا أمته في هذا الميدان لفعلوا ، ولعجزتم عن مقاومتهم !

أفما كان الأولىٰ بك وبإخوانك أن تصنعوا شيئاً لدينكم في ميدان خلا منه ، بدل الدخول في موازنة بين الشافعي ومالك ؟

وسألني طالب بأحد أقسام الكيمياء عن موضوع شائك في علم الكلام ! فقلت في نفسي : إن جائزة « نوبل » لهذا العام قسِّمت بين نفر من علماء الكيمياء ليس فيهم عربيٌ واحد ، وحاجة المسلمين إلى الاستبحار في علوم الكيمياء ماسَّـة ، وقد أوردت في بعض كتبي كيف أباد الروس قرية أفغانية

عندما شنُّوا عليها حرباً كيماوية ، وذهب الضحايا في صمت ، وتسامع جمهور المسلمين بالنبأ وهو لا يدري شيئاً عما كان أو يكون . .

قلت للطـالب السَّـائل :

إنَّ ما تسأل عنه درسناه قديماً ، وحكايته كيت وكيت ، وخير لك أن تنصرف عن هذا الأمر وأن تقبل بقوة على ما تخصصت فيه ، إننا فقراء إلى النَّابغين في المادة التي تتعلمها ، وأغنياء عن المشتغلين بالفلسفات الكلامية . .

واسـتتليت ضاحـكاً :

كانت الكيمياء قديماً تهتم بتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وتحدث الشعراء عن كيمياء الحظوظ التي ترفع السفلة إلى مناصب العُلا !

وسـألني الطالب وهو يضحك أيضاً عن كيمياء الحظوظ هذه ؟ فذكرت له بيتي ابن الرومي :

إن للحـظ كيـميـاء إذا مـا مسَّ كـلبـاً أحـالـه إنسـانـاً
يرفع الله ما يشـاء متى شـاء كما شاء كائنـاً ما كانا . . !!

والحظوظ قد تلعب دوراً في الحياة ، ولكنه ثانوي محدود ، أما ارتفاع الأمم وانخفاضها فيرجع إلى قوانين صارمة وأقدار جادة ، والمسلمون لم يُظلموا عندما هُزموا في سباق الحياة ! إنهم شوهوا معنى التدين فانهزموا بجدارة . .

وعـدت أقـول للطـالب :

تعمق في علوم الكيمياء فهذا أجدىٰ على الاسلام من انكبابك على بعض قراءات دينية تخصصية ليست مطلوبة منك ، وحسبك من فقه الدين ما ينطبع في فؤادك وأنت تقرأ القرآن الكريم ، ثم سر وراء نبيك البطل ﷺ وتعلَّمْ منه كيف غيَّر الدنيا باسم الله . .

وانصرفت عن الطالب الحائر وما أدري هل اقتنع أم لا ؟!

إنه مع كثير من الشباب يظنون التقوى : بذل وقت أكبر في القراءات الدينية ، والأخذ بقدر يسير من شؤون الدنيا وعلوم الحياة ، ولعمري إن الاسلام لا يكسب خيراً من هذا المسلك ، **ولا تنتصر عقائده إذا كان أهله في بلاهة الهنود الحمر ، وكان أعداؤه يملكون « مكوك » الفضاء !!**

املك ناصية الحيـاة بعلم واقتدار تقدر على نصرة الحق الذي تعتنق ، أمًا قبل ذلك فهيهات ولسوف يسبقك الدهاة والشطار . . . !!

فـــرض الكفايــــة .. وفـــرض العــــين ..

الفروض ـ كما يقول الفقهاء ـ قسمــان : فرض عين . . وفرض كفايــة .

يعنون بفرض العين ما يجب على الشخص نفسه ويُسأل عنه وحده ، أمًا فرض الكفاية فهو واجب على المجتمع وجوب شيوع !

ومن هنا فإن المسلمين يعرفونه بهذه الخاصة ، أنه إذا قام به البعض سقط عن الباقين ولا يجري على ألسنة العامة إلاَّ مثل واحد له ، هو صلاة الجنازة . !

وقصة فروض العين وفروض الكفايــة لا تحكى بهذا الأسلوب العليل ، وسوء عرضها في مجال التربية والإعداد جعل المسلمين يتصرفون بطيش في أمور تمس حياتهم وبقاءهم ، وقد تعلي رايتهم أو تنكسها . .

والواجبات الكفائية تتطلب من الدولة أمرين ينبعان جميعاً من تكليفها ابتداءً باختيار من يحمل أعباء هذه الواجبات ويستطيع أداءها :

الأول : الاطمئنان إلى أن هذه الواجبات وجـدت العدد الكـافي من الاختصاصيين للنهوض بها ، فإذا كانت الأمة تحتاج إلى مائة صيدلية مثلاً ولم يتوفر إلاَّ خمسون ، اهتمت باستكمال العدد الذي يضمن الصحة العامة ، ولا يجوز أن تتغاضى عن هذا النقصان . .

الثاني : أن تتابع بوسائلها الكثيرة حسن الأداء ، ودقة الوفاء حتى تقوم المصلحة العامة على دعائم ثابتة . .

إن الأمـــة العاجزة عن استخراج بركات الله من أرض الله لن تؤدي رسالة الله ، **والأمة العاجزة عن تجنيد مواهب المسلمين لإعزاز المسلمين أمة تلقي بأيديها إلى التهلكة . .**

ترى كم مصنعاً لصنوف الأسلحة يحتاج إليها تحرير المستضعفين ؟ وكم فنِّياً يجب إعدادهم لتحقيق هذه الغاية ؟

إن **فرض العين** قد يتناول أركان العبادات من صلاة وزكاة ، وأركان الأخلاق من صدق وحياء ، وقد يتناول ترك الكبائر من ربا وخنا ، وهذه أمور ترتبط عادة بالضمير الفردي والسلوك الخاص .

أمَّـــا **فرض الكفاية** فإنه قد يتصل بحراسة الأمن ، والقضاء بين النَّاس ، والقيام بشتىٰ المناصب ، وإجادة الفنون والصناعات التي ينهض بها العمران ، وتحيا عليها الأمة . . وغير ذلك من الشؤون المهمة . .

فهل فرض الكفاية ـ وذاك خطره ـ يكفي في وصفه أن يقال في حقه : **إذا قام به البعض سقط عن الباقين ؟**

إن المجتمع الإنساني كيان متشابك المصالح ، والناس ما يستغني بعضهم عن البعض الآخر ، والأجهزة الإدارية والثقافيـة والصحية والاقتصـادية والعسكرية في بنيان الأمة تشبه الأجهزة العصبية والهضمية والتنفسية والدورية في الجسد البشري ، ومن هنا فإن فروض العين والكفاية تتداخل في الحياة العامة تداخلاً تاماً ، ويتوزع الاهتمام الديني عليها كلها فلا يدع شيئاً منها . .

إن **فرض الكفايـــة** يأخذ هذه التسمية قبل أن يختار الشخص المناسب ويتحدد الجهد المطلوب ! أما بعد الاختيار والتحديد فإنه يتحول إلى فرض عين ، وعلى من كُلِّف به أن يستفرغ الوسع في إتمامه .

ولنزد الأمـر وضوحاً . . الصّلاة فرض عين لأن كل إنسان يستطيع الصلاة فما يستثنىٰ أحد من وجوبها ، أمَّا القضاء والتدريس والهندسة فهي فروض كفاية لأنه ليس كل إنسان يقدر أن يكون قاضياً ، أو مدرساً أو مهندساً . .

فإذا ترشح امرؤ بمؤهلاته العلمية للقضاء ، وعينته الدولة في المنصب المعدِّ له ، فإن قيامه بأعباء منصبه هذا أصبح فرض عين كالصلاة والصيام ، وما يجوز له أن يتراخى فيه أو يفرط ، وكل ذرَّة من استهانة أو خيانة فهي عصيان لله ، واعتداء على الدين ، ولا يقبل أبداً الاعتذار بأن ذلك وقع في فرض كفاية . . إن الجهد البشري يجب أن يوزع بالقسطاس المستقيم بين الصَّلاة المفروضة عليه والقضاء المطلوب منه ، حتى يشيع العدل في المجتمع وتبلغ الحقوق أصحابها . .

وربما استغرقت دراسة القضايا عشرة أضعاف الوقت الذي تستغرقه إقامة الصَّلاة ! ليكن ؛ فهذه عبادة وتلك عبادة ، وفروض الكفاية غالباً تأخذ من الوقت أكثر مما تأخذ فروض العين ، ولعلَّها تستغرق أعمار النَّاس ، ليكن ، فذلك هو الطريق لإرضاء الله ، وحماية الأمة ، والحفاظ على الدين ، وإنشاء دنيا تصونه وتنميه . . !!

وما يقال في القضاء ، يقال في التدريس ، والتطبيب ، وفي كل مهنة تحتاج الأمة إليها ويرتبط قيامها بها . . والجماعات البشرية في القارات الخمس تدرك هذه الحقيقة ، وتنشىء ألوفاً مؤلفة من الوظائف ، وتعين ألوفاً مؤلفة من الأشخاص ، وتقر نفقات ضخمة في موازناتها العامة ، لكي تضمن هذه المصالح . .

والمطلوب من كل مكلف أن يؤدي العمل على خير وجه ، وأن يوفي بالعقد الذي التزم به مع الدولة ، وهي لن تضنّ عليه بما يطمئنه . .

وأعتقد أن ذلك بعض ما يعنيه قوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون** ﴾ (**المؤمنون : ٨**) ، فإن المناصب كلها أمانات مسؤولة ، والقيام عليها عقد مرعي الزمام . .

لكن المسلمين للأسف الشديد أكثر الأمم إضاعة لهذه الأمانات والعهود ، والأعمال الرسمية في بلادهم مهددة الحرمة ، والوظيفة مصدر للأخذ أكثر مما هي وسيلة إلى العطاء . . ! ! وجهالة المسلمين فاحشة بفروض الكفاية وطبيعتها وآثارها . .

ويرجع ذلك ـ عند بعض المتدينين ـ إلى أنهم يفرقون بين صور العبادات المأثورة ، وأداء الأعمال المدنية المختلفة ، الأولىٰ عندهم دين ، والأخرى ليست عبادة إلاَّ على ضرب من التجوُّز .

رأيت بعضهم على مكتبه جالساً بادي السآمة ، يجيئه النَّاس لحاجاتهم فيرجىء ما يشاء ، ويهمل ما يشاء ، حتى إذا اقترب وقت الظهر شرع يستعدُّ له قبل الأوان . . قلت له :

إن ما تقوم عنه ليس بأهون مما تقوم له . . ونشاطك في إنجاز مصالح النَّاس في أخصر وقت ، وعلى أحسن وجه دين ، وهو واجب كالصلاة والصيام !

قــــــال :

إننا نستعد للصلاة المكتوبة ، وسنؤدي عملنا بعد أداء حق الله !

قلــــــت :

جميل أن تحرص على الصَّــلاة في وقتها ، ولا عليك أن تصليها أول الوقت أو وسطه ! وخير لك أن تعجل بإنجاز عمل هذا القادم من بلده ، القلق على مصلحته ، خاصة وأن الصَّلاة تربي الانسان على الشعور بالواجب ، ولا تستغرق من الزمن أكثر من بضع دقائق معدودة . .

ونحن لا نهوِّن من شأن الصلاة المكتوبة وأدائها على وقتها ، ويمكن وضع

نظام لأدائها جماعة أول الوقت ، أو بعد انتهاء المحاضرة في المدرسة ، والنوبة في المصنع ، والجراحات والكشوف في المستشفى ، ويحدد لذلك زمن معتدل لا يستغله أهل البطالة . .

أما عدُّ الأعمال العامة شيئاً تافهاً ، أو شيئاً يقبل فيه العبث والتسويف فهذا تضييع لفرض يحرم تضييعه !!

الفريضـــــــــة .. والنافلـــــــــة ..

ومن قبيل الاستهانة بالفروض الكفائية أن رجلًا رغب أن يحج نافلة ـ أظن ذلك للمرة الثالثة ـ فقلت له :

كم تتكلف هذه الحجة ؟ قرابـة ألف جنيه ؟

قـــــــال :

نعـــم وأكثر !

قلـت لـــه :

أدلّك على عمـــل أفضل ، إن فلاناً تخرج من كلية الصيدلة ، وهو فقير والمسلمون فقراء إلى صيدليات إسلامية ، فضع في يد الشاب المتخرج هذا المبلغ يبدأ به حياة تنفعه وتنفع أمته ، ولك عند الله ثواب أكبر من ثواب حجتك هذه !!

فنظـــر الرجل إليَّ دهشاً وصـــاح :

أهذا كـــلام يقـــال ؟

قلـــت لـــه :

إنك إذا أطعتني أقمت فريضـــة وسددت ثغرة ، وشاركت في جهاد جليل الثمرة . . بدل هذه النَّافلة التي تبغي .

قال وهو لا يزال في دهشـــته :

أدَعُ الحج ! وأُعينُ على فتح صيدلية ، ما هذا ؟

إن جمهوراً غفيراً من المسلمين لا يدري أبعاد المأساة التي تعيش فيها أمته ، ولا مدى التخلّف الرهيب الذي يهدد يومها وغدها ، ومن ثم فهو يخبط في دينه خبط عشواء . !

وفي مكان آخر من كتبي ذكرت قول الفقهاء : إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، والفريضة المطلوب أداؤها يستوي أن تكون فريضة عينية أو كفائية . . !

وقلـــــــت :

إذا كان التنفُّل يعجز عن احســان واجب فلا مكان له ، وضربت مثلاً لذلك :

إذا كان صوم التطوع يعجز المدرس عن تصحيح ورقة إجابة بدقة فلا ينبغي له أن يصوم ، وكذلك إذا كان شيء من ذلك يعجز الطبيب عن إجادة فحص المريض ، أو تصوير الموضع المصاب ، أو كتابة الدواء اللازم . . !!

إن الله سبحانه أعفى جمهور المؤمنين من قيام الليل وطول القراءة فيه ، إذا كانوا يعانون من الجهاد في سبيل الله ، أو طلب الرزق من هنا ومن هناك .

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَــارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (المزمل : ٢٠) .

ولقد كان ابن مسعود يؤثر الإفطار على الصيام ـ صيام التطوع ـ لأن الفطر أعون له على قــراءة القرآن ، وكان ابن مسعــود رضي الله عنه ، يتأنق في تلاوته ، وكان النّاس يأخذون القرآن عنه . .

والواقع أن العبادات العينية أو الكفائية وسائل لتزكية الفرد ورفعة المجتمع ، والمؤمن الحصيف يقبل على ما يلائمه من هذه وتلك ، دون محاولة للفرار من واجب يتعيَّن عليه .

فالغنيُّ عبادته الأولى : **البذل وإسعاف المحتاجين** ، ولا يصلح له الصيام وقيام الليل ، إذا كان الصيام والقيام مَهْرَباً له من الانفاق في سبيل الله .

والقارىء الفقيه عبادته الأولىٰ : **النصح وتعليم الخاصة والعامة ، ولا يصلح له الاعتكاف ، والخروج بالصمت عن « لا »و « نعم » في مواطن الأمر والنهي وشيوع الفتن . . !**

التـــدين وصلتـــــــــــه بآلاء الله في الكـــون ..

وثم أمر آخر يتصل برسالة الدين بين الأحياء ، **إنني أكره التديُّن المحجوب عن جمـال الكون وعـظمته ، المشلول عن فهم أسـراره وتسخيـرهـا لمصلحته . .**

وبين الحين والحين يساورني ـ وأنا أتلو القرآن ـ شعور بأن الله يريد لفتنا إلى إبداعه في الأنفس والآفاق ، يريد إشعارنا بما في كونه من دقة ورقَّة ولطافة واقتدار ، يريد من النَّاس أن يطالعوا آيات عظمته في هذا الكون الدَّال على ربه ، الموجِّه إليه بالليل والنهار . .

وهل يقسم الله بعناصر كون تافه ؟ انظر إلى هذه الصورة !

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ . . ﴾ **(الانشقاق : ١٦ـ١٨)** .

إنها صورة الأصيل المحمرّ الأفق يعقبه الغروب ، وبزوغ القمر . . ثم صورة أخرى لمرحلة تابعة من مراحل الزمان .

﴿ . . . وَٱللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير : ١٧) . لقد تحركت الدنيا واهتز صدرها بأنفاس اليقظة الباكرة !

إن الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، يطلب منّا أن نستكشف صفاته في أرجاء ملكوته ، وأن ننظر إلى العالم على أنه مجلى أسمائه الحسنىٰ ، وأن نبني سلوكنا بعد ذلك علىٰ إيمان وثيق ، وخضوع مطلق ، وأن نسترشد بوحيه ونحن نكدح على الثرىٰ استعداداً لرحلة العودة ، وهي رحلة لابد منها .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ (الأنعام : ٢) .

إنه أمر مثير للعجب أن يعيش جمهور المسلمين من بضعة قرون ، لا يعرفون عن الكون شيئاً يذكر ، وأن تكون علومه ثانوية في ثقافتهم الخاصة والعامة ، وأن يكون التعرف على أسراره وقواه شيئاً كمالياً خفيف الوزن عند البعض ، وضرباً من اللغو والعبث عند البعض الآخر !!

فما الذي استحوذ على انتباههم من فنون المعرفة ؟ كلام في دين الله لو **عرفه سلفهم ما فتحوا بلداً ولا أنشأوا حضارة !!**

في الوقت الذي صدَّ فيه المسلمون عن الدراسات الكونية أوغل آخرون في طريقها ، وحققوا مآرب رهيبة ، ثم **طوَّعوها لنصرة عقائد باطلة وفلسفات وضيعة . . !!**

إن هذه القطيعة الموحشة بين الدين من ناحية وبين الكون والحياة من ناحية أخرى ينكرها الاسلام كل الانكار ، ويطلب من عباد الله الصَّالحين مسلكاً يناقضها كل المناقضة . .

قد تقول : **نحن نعرف ذلك ولا جديد فيما تحكي . . !**

وأجيب : **لا يزال الشباب الذي يريد المتاب والعمل للإسلام يدير**

ظهره للدنيا وعلومها ، ويخفف حقائبه من البحوث الكشافة للقوى الحيوية الكثيرة ، ويظن الذكر والشكر في العبادات المحضة !

كنت في بعثة إلى « نواكشوط » عاصمة موريتانيا الاسلامية تهتم بشؤ ون الدعوة . . ورأيت هناك جماعة من الشيوعيين الصينيين لا يعملون للسماء وإنما يعملون للأرض ، استطاعوا اكتشاف منابع للمياه العذبة ، ومدُّوا شبكة للأنابيب إلى الأراضي التي كانت تحتاج إلى المياه !

ورأيت هؤلاء الشيوعيين الصينيين في اليمن الشمالي يشقون في قلب الصحراء ، وبين سلاسل الجبال طرقاً « مزفتة » أو « مسفلتـة » بتعبير العوام ! فقلت في نفسي. : من أقصى الشرق ، من بعيد بعيد ، يجيء هؤلاء ليصنعوا في بلادنا ما يصنعون ! فماذا نعمل نحن ؟

لقد شعرت بالغيظ عندما علمت أن قطراً إسلامياً كان يصدِّر القمح أيام كان مستعمرة ، فلما استقل ، ووقع زمامه بين أيدي أهله اقشعرت الأرض ، وبدأ استيراد القمح من الخارج !!

وشعرت بالاستحياء وأنا أحصي الدول الصناعية المنتجة فلا أجد ، بين العشر الأولى ، ولا بين العشر الثانية ، ولا . . . دولة مسلمة واحدة !!

ومعــروف أن اليابان بدأت نهضتها من قرن تقريباً ، وأن شعوباً اسلامية بدأت نهضتها في الزمان نفسه ، ووصلت اليابان إلى الذروة وبقينا نحن في السفح . .

ما الســبب ؟ قد يكون لفساد الجو السياسي دخل كبير ! ولكن فساد الجو الثقافي له ـ في نظري ـ دخل أكبر .

ما تقول في فتيان يريدون إشعال معركة من أجل قضايا جزئية تتعلق باللباس وغيره هي أقرب إلى سنن العادة منها إلى سنن العبادة ، وقد تأتي في نهاية سلم الأولويات .

إن دين الله لا يقدر على حمله ولا على حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الانسانية الذكية ، الثرثارون في عالم الغيب ، الخرس في عالم الشهادة . . .

وأشعر بأن فقر المسلمين إلى الاستبحار العلمي لخدمة دينهم ودنياهم يحتاج إلى شرح أكثر ، فإن تبجح الجهال بما لديهم من معارف مغشوشة ، أو قاصرة أمر لا يطاق ، وإذا لم نوضح لأمتنا الحق كله تعرضت وتعرضنا معها للهلاك . . ولأنقل إلى القارىء خلاصات وجيزة عن سير التقدم العلمي في العالم الحديث ، ليعرف أي هاوية سنتردى فيها إذا لم نغير أنفسنا . .

شيء عن التقدم العلمي ..

ألقى الدكتور محمد كامل محاضرة في هذا الموضوع نقتبس منها هذه العبارات ، مع تصرف في الصياغة اللفظية ، قال :

من قرن وثلث فقط بدأ التطبيق الواعي للعلم في ميادين الصناعة والزراعة والطب . .

استطاع عالم انكليزي تحضير مركبات كيماوية ملوَّنة تحل محل الصبغات الطبيعية المعروفة ، ونتج عن ذلك الكشف ظهور الأصباغ والأدوية والأسمدة المخصِّبة ، والمبيدات الحشرية والألياف . . إلخ .

استخدمت الأساليب العلمية في جميع الصناعات ، وتنافست في هذا المجال انجلترا وفرنسا وألمانيا أولاً ، ثم لحقت الولايات المتحدة بهذه الدول في القرن الماضي . . وأخيراً الاتحاد السوفييتي واليابان . .

بعد الحرب العالمية الثانية أصبح التقدم العلمي يسير بخطوات فساح ، ومعدَّلات خيالية ! وثبت أنَّ ٨٠٪ من الدخل الموجود في الدول الصناعية يرجع

إلى هذا السبق ، وأن ٢٠٪ يرجع إلى تراكم رأس المال .

أدرك النَّاس جميعاً خطورة التقدم العلمي من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، فشرعوا يتجهون إليه ، وصفوة العلماء ـ في الدول الكبرى ـ مشغولون الآن ولبضع سنين ، بالبحث في قشرة الأرض وما تحتوي عليه من يابسة وماء وهواء ، وقد أقروا الآن نظرية في « التركيبات الأرضية اللوحية ! » ـ ترجمة حرفية لنص انجليزي ـ ولهذه النظرية ارتباط مباشر بعدة قضايا ، منها : **احتمالات العثور على الثروات المعدنية والنفطية ومستودعات الغاز الطبيعي ، واختيار الأماكن التي تدفن فيها النفايات الناتجة عن المفاعلات الذرية ، ومتابعة الحركة المعقدة للمحيطات وتياراتها ، ومعرفة الأسس لتغيّر الجو ، وحدوث الجفاف ، ورسم صور لأعماق البحار واستخراج عينات من صخورها ، وأخطار زيادة الكربون في الجو . . . إلخ .**

ثم هناك التطبيق العلمي الواسع لكشوف الفضاء ، وعمل الأقمار الصناعية ، ودراسة الصور التي تقدمها لنا عما يقع في هذه الأرض من حركات مدنية وعسكرية !! وإمكان الإفادة من هذه الأقمار في عالم الإعلام والبث الإذاعي .

ترى ماذا نقول للناس في هذا البث ؟

ومضى المحاضر يتحدث عن آفاق التقدم العلمي المعاصر ، فتطرق إلى علم الأحياء ، وبيَّن أنه خطا إلى الأمام ، فبعد أن كان علماً وصفياً ، يعنى بسلوك وتركيب الكائنات الحية كلها ، ويشرح وظائف أعضائها ، **تحوَّل إلى علم تحليلي يهتم بتكوين الخلايا الحيَّة منذ نشأتها الأولى** مستعيناً بالأجهزة الحديثة مثل : « **الميكروسكوب الألكتروني** » الذي يستطيع تكبير الأشياء آلاف المرات ، **وأجهزة الطرد المركزي التي أمكنت من فصل أجزاء الخلية وجزيئاتها ، والأشعة السينية التي تعطي فكرة عن التركيب البلّوري للمواد ،**

والرنين النووي المغناطيسي الذي يساعد على تركيب الجزئيات ، بالإضافة إلى التطورات الكبيرة الناتجة عن استخدام النظائر المشعة !

لقد استطاع العلماء ـ بهذه الأدوات ـ نقل الجزئيات الحاملة للصفات الوراثية من كائن حي إلى كائن آخر ، وقد تدخَّل « الكونجـرس » الأميركي ومنع المضيَّ في هذه البحوث ،لأنه خشيَ أن تتولد من عمليات النقل جراثيم تقضي على الحياة البشرية . .

قـال المحاضـــــــــــر :

وقد اتجه العلماء ببحوثهم في مجال الهندسة الوراثيـة إلى البكتريا والفيروسات ، ومنها إلى الكائنات الأكثر تعقيداً بعد توفير ضمانات معينة ، طمأنت المسؤولين . .

وصعد البحث من الأرض إلى السمـاء ، والصورة المرتسمة الآن في أذهان العلماء أن الكون يحتوي على ملايين المجرات الموزعة في الفضاء على جميع الاتجاهات بشكل متجانس ، وأن هذا الكون يتمدد ، وقد يظل كذلك حتىٰ ينفجر . .

ثم تحدث المحاضر عن « **الحاسبات الألكترونية** » قائلاً : **إن توسعاً هائلاً دخل في صناعتها ، وأن المواد نصف الموصلة قد تطورت من ١٠٠٤ قطعة من المعلومات لكل شريحة سنة ١٩٧١ إلى ٦٤ ألف قطعة معلومات لكل شريحة سنة ١٩٧٨** ، وأن هذه الحاسبات ستدخل البيوت في الولايات المتحدة خلال عشرين سنة ، ومن الممكن تصور استخدام الحاسب لتنفيذ مطالب معينة عن طريق التليفون ، كطهي الطعام في الأفران ، وغسل الملابس ، وتسجيل المواعيد ، والإشراف الطبي على المرضىٰ ، والحراسـة والانذار عند الخطر ، والجلوس مع الأطفال . . . إلخ .

إنني أبحث لنفسي هذا التلخيص كي يشعر المسلمون بأن ضيق الأفق

قاتِلهم لا محالة ، وأن العزلة عن الكون وعلومه جريمة في حق الاسلام وأهله ، وأن تأييد الحق الذي شرَّفهم الله به لا يتم بالقصـــور العلمي وحسبان الدين مراسم جوفــاء ، وأن العبادة كما تكون مناجاة لله في صلاة خاشعة تكون مدارسة لعمله الجليل في كونه الكبير . .

التفريــــط في خدمـــــة العربيـــــــة ..

وقد رأيت أن الأستاذ الدكتور ألقىٰ محاضرته باللغة العاميَّــة لأنه ـ مع إيمانه ـ كان عاجزاً عن التحدث باللغة الفصحىٰ . !

وتفريط العرب في خدمة اللغــة العربية فضيحة مشهورة ، وهو تفريط بدأ هيِّن النتائج في عصور خلت ، ثم استفحل شرُّه في العصر الأخير حتى بلغ الخزي بنا وبلغتنا أن طالباً في بيروت سأل أستاذه عن المعنىٰ العربي لمصطلح أجنبي ! فقال له الأستاذ المرتدُّ : **وهل العربيــة لغـة ؟؟**

وسماسرة الغزو الثقافي يضاعفون جهودهم في هذه الأيام العجاف للقضاء على اللغة قضاءً تاماً في أغلب ميادين النشــاط الفني والعلمي . . !

والمفروض أن تكون اللغة العربية لغة عالمية ، فهي اللغة الوحيدة للوحي الإلٓهي الباقي على ظهر الأرض ! وتعليمها وتعميمها واجب كفائي ـ بتعريف الأصوليين ـ وبالتالي فهو فرض عين على المدرسين العرب ، وعلى المجامع والمعاهد التي خصصت لذلك .

وهو أبرك وأغزر مثوبة من قضاء الليل في التسبيح والتحميد ! لأن العربية إذا انهزمت وانفرط عقدها ضاع القرآن نفســه ، ونشأت أجيال أعجمية لا تفهمه إذا بقي من يقرؤه !!

وصـــورة واقعنا الآن أن ألف مليون مسلم يقدسون القرآن شكلاً ، وأن سبعهم من العرب الذين يندر فيهم المجيدون لقواعد اللغة وآدابها ، وقد وصل إلى مناصب الحكم دهماء لا يحسنون الخطابة السياسية باللغة الفصحىٰ .

ولغتنا لا وجود لها في الكليات العملية لأن الدراسة باللغات الانكليزية ، أو الفرنسية ، أو الروسية ، **أمَّا ألفاظ الحضارة التي نحتت لها في اللغات الأخرى ألوف المفردات والتراكيب فليس لها مقابل لدينا . .**

وريبتي شديدة في المجامع المتخصصة ، ما الذي قامت به ـ وهذا عملهـــا ـ ؟ ، وإذا كان لها عمل ما حالت عوائق مصطنعة دون ظهوره فما أخرسها عن الجؤار بالشكوىٰ واللغة تمـــوت ؟

وسبب الريبة أن الدكتور طـــه حسين ظل رئيساً لمجمع اللغة العربية عدة سنين ، وهو يصل إليه محمولاً لعجزه عن المسير ـ أو عن التفكير ـ ومع ذلك فقد استبقي عن عمد ! لأنه لا يهتم بالدفاع عن اللغة إلاَّ مؤمن غيور ، والرجل في ذلك المجال معروف !

والســؤال الذي لا نفتأ نردده : مـــاذا يصنع حرَّاس اللغة العربية واللغة تموت يوماً بعد يوم ؟ إن موت لغتنا يعني هلاكنا الروحي والمادي معاً . . !

ملحـــــــــــــــــق ..

من أمارات النُضرة في ثقافتنا القديمة هذه الكلمات لابن الجوزي يدعو فيها إلى علو الهمـــة ، ويطلب من المسلم أن يكون طليعة سابقة في كل ميدان ، يقـــول : «**ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه ، فلو كان يتصَوَّر للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض ! ولو كانت النبوة تحصَّل بالاجتهاد رأيت المقصِّـــر في تحصيلها في حضيض !** » إن هذه الصيحــة الشَّمـــاء نضحت من وحي الإيمان الحق ، ومن خصائص التربية

الإسلامية في الشروق المحمديِّ الأول ، وهو الشروق الذي قاده رجال أصحاب عزمات شداد ، وآمال عراض ، فطووا في سياحتهم المشارق والمغارب !

وابن الجـوزي من علمـاء القرن السادس الهجري ، ولو رأى المسلمين الآن في عصر الفضاء ينظرون إلى غزاة الجوّ ببلاهة لحمل السوط وجلد به الظهور ، ولبرًّأ الاسلام من هذا الانتمـاء المخزي !

وأريد أن أنقل نصاً لإمـــام الحـرمين يتحدث فيه عن فروض **الكفايـة ، وعن الموقف إذا تعارض فرض كفايـة مع فـرض عين ؟**

ولنثبت النَّص أولاً ثم نتبعه بشرح موجز . . قال رحمه الله : « **ثم الذي أراه أن القيام بما هو من فروض الكفايات أحرى بإحراز الدرجات ، وأعلى في فنون القربات ، من فرائض الأعيان ! فإن ما تعيَّن على المتعبد المكلَّف لو تركه ولم يقابل أمر الشَّـارع فيه بالارتسام ـ الانقياد ـ اختصَّ المأثم به ، ولو أقامه فهو المثـاب** » .

« **ولو فرض تعطيل فرض من فروض الكفايات لَعَمَّ المأثم الكافَّـة على اختلاف الرتب والدرجات ، فالقائم به كافٍ نفسَـه وكافَّة المخاطبين الحرج والعقاب ، وآمل أفضل الثواب ، ولا يهون قدر من يحلُّ محلّ المسلمين أجمعين في القيام لمهم من مهمات الدين** »

« **ثم ما يُقضَى عليه بأنه من فروض الكفايات قد يتعين على بعض الناس في بعض الأوقات ، فإن من مات رفيقه في طريقه ، ولم يحضر موته غيره تعيَّن عليه القيام بغسله وتكفينه ودفنه . . . إلخ** » .

ومضى الإمام بمنهجه الذكي يشرح ضرورة التيقُّظ لفروض الكفاية ، ويبيِّن كيف تتحول فروض عين ، ويبدي رأيه في تقديمها على الواجبات العينية في بعض الأحيان .

ولست أحب الجدل في قضايا موهومة ، فأتخيل في دنيا النَّاس اليوم أن الوقت لابد فيه من أحد أمرين : إمَّا الصلاة مثلاً ، وإما كذا من الواجبات الكفائية !

إن أسبوع العمل في العالم المتقدم أربعون ساعة فقط ! استغرقت كل ما تطالبُ به الأمة من أعمال تثبت وجودها ، وتنجح رسالتها ، وتعلي رايتها . .

وما بقي من (١٦٨) ساعة هو لاستجمام الفرد ومرحه ولهوه . .

والدين لم يقاسم المرء ساعات عمره بهذا الحساب ، ولم يجعل للعبادات المحضة إلاَّ أويقات محدودة !

ويقدر أي إنسان أن يجعل طعامه ومنامه عبادة بحسن القصد وإرادة الله وابتغاء ما عنده .

ويقدر كل إنسان أن يجعل أي عمل له في البر أو البحر أو الجو طاعة لله بهذه النيَّة الشريفة . . !

وعندما فرض الله الصلوات المكتوبة جعل لها أوقاتاً موسعة ، وأوقات ضرورة .

ويمكن التنسيق الجميل بين شعائر الله ، وسائر الأعمال الأخرى !

الأساس الذي ننطلق منه أن نعرف أنفسنا ، أن نعرف أننا أصحاب رسالة سماوية لا تنجح إلاَّ إذا ملكت خيرات الأرض وبركاتها وطوَّعتها لخدمة هذه الرسالة . . !!

لا ، إن الاسلام هو وحده العلاقة الفذَّة بين الله والنَّاس ، من بدء الخلق إلى قيام السَّاعة ! ولدينا وحدنا معالم الوحي وكلماته الأخيرة ، فإذا فشلنا في تقدير تراثنا ، **وحشد قوى الكون لإحقاق الحق وإبطال الباطل فلا نلومنَّ إلاَّ أنفسنا . . !!**

الفصل الثاني

في الثقافة والتربية والأخلاق

الدراسات التقليدية عندنا ، أو ما يسمّى بالتعليم الأصليّ في الجزائر ، أو ما أسميه الثقافة الذاتية للأمة الإسلامية ، هذا النوع من المعرفة يذوي ويخفّ وزنه ويتوارىٰ رجاله !!

إن الثقافة الذاتية شيء ، والعلم الذي لا وطن له شيء آخر !

العلم العام كالهندسة والجبر والحساب ، والفيزياء والكيمياء والأحياء ، والطب والعمارة والفنون العسكرية والمدنية المختلفة ، هذه كلها تنتشر في القارات الخمس ، ويتنافس البشر في إجادتها ، ويقتربون أو يتحدون في حصيلتها . .

وهي - في جملتها وسائل لخدمة الأمم ورسالاتها المتباينة في هذي الحياة . . أي أنها تنمو وتمتد في حضانة ووصاية الثقافة الذاتية لأية أمة . .

ذلك أن هذه الثقافة تصوِّر شخصية الأمة وملامحها الفكرية والنفسية ، وتشرح عقائدها التي تنطلق منها ، وأهدافها التي تنطلق إليها ، وتقاليدها وأخلاقها وشرائعها بدءاً من الأسرة إلى علائقها الدولية .

كما تشرح آدابها ولغتها وخصائص شعرها ونثرها . .

وتهتم بالتاريخ تُربط الأجيال اللاحقة بالأجيال السابقة ، وتربط الولاء الخاص والعام بالقيم المقررة والشعائر الظاهرة . .

الثقافـــــــــــة الذاتيـــــــــــة :

إن هذه الثقافة الذاتية هي اكسير الحياة للأمة ، والمجدد الدائب لطاقاتها الأدبية والمادية .

ومن هنا اتجه الاستعمار العالمي إلى ضرب هذه الثقافة ، وتوهين معاهدها فإما أجهز عليها ، وإما شلَّ حراكها وأبقاها صورة هامدة ، أو اسماً بلا مضمون .

وذلك ماحدث لجامعة القرويين والزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية في ليبيا والسودان وأقطار أخرىٰ . .

ونتج عن ذلك أمران خطيران : اضمحلال العقل الإسلامي ، وضعف الدراسات الدينية . . ثم اضمحلال اللغة العربية وآدابها وانكماشها أمام التقدم الحضاري وقلة المجيدين لها ، وكثرة اللاحنين فيها دون أدنىٰ حياء . .

ولما كان ساسة العرب وقادتهم من خريجي التعليم المدني ـ أكثر من ٩٩ ٪ منهم بعيد الذهن عن ثقافتنا الذاتية ـ فإن النهضة الاسلامية تتعثر حيناً وتتقهقر حيناً ، وإذا تقدمت خطوة ففي وجه صعوبات دامية . .

وقد شعرت بالخزي وأنا أسمع هؤلاء يخطبون ! إنهم يتحدثون عادة بلغة الدهماء ، وإذا جرت على ألسنتهم كلمات عربية ، فإن (بَدْء) تنطق بكسر الباء ! ومن ثم تنطق بضم الثاء ! أما قواعد النحو ، فحدث ولا حرج عما يعتريها من إهانة !

والأغرب من ذلك أن محطات الاذاعة تنشر دراسة متصلة عن « **الخصائص البلاغية** » لصاحب هذه الخطابة العامية ، ولم يبق إلا أن ننشر بحوثاً أخرى عن مظاهر البديع والبيان والمعاني في بغام الدواب ونقيق الضفادع !!!

ولا أعرف لغة اعتدي على شرفها كما يعتدي هؤلاء على اللغة العربية المسكينة . . !

أما الدين نفسه فحديث مملول ، وتذكير بما مات أو بما ينبغي أن يموت ، ولكن هذا الشعور يُغلَّف ببعض عبارات المجاملة أو التوقير المصنوع اتقاء لغضب الجمهور .

فإذا أمن ذلك الغضب في مجتمع ذليل ، أو منحلٍّ ، فالدين رجعية ، والصلاة مشغلة للوقت ، والصيام معطل للإنتاج . .

وهذا كله يقع والعرب في حرب مع اليهود الذين أحيوا لغتهم ، ومزقوا عنها الأكفان ، وأحيوا صلواتهم ، ومشوا لأدائها في عواصم أميركا باعتزاز وثقة . .

العلـــوم الانســـانية وصلتها بالثقافة الذاتيـــة ..

لندع هذا الاستطراد الحزين ولنعد إلى حديث الثقافة الذاتية والعامة لنتساءل : **هل العلوم الانسانية من النوع الأول أو الأخير ؟**

والعلوم الإنسانية هي علم النفس والاجتماع والتربية والأخلاق والاقتصاد

والسياسة والإدارة . . والتاريخ . . إلخ ، وقد تنضم إليها بعض الفلسفات الإلٓهية وغير الإلٓهية . .

وموضوعات هذه وتلك تتناول صلة الإنسان بنفسه وغيره ودائرتها تتشابك مع الإسلام في مساحات واسعة . .

وأرىٰ أن نستفيد من هذه الدراسات على ضوء من المعرفة الدقيقة بما قال الإسلام في قضاياها المتشعبة .

إن العلوم الإنسانية تكون أحياناً وصافة لأحوال النفس والمجتمع .

ويتسم عملها في هذا المجال بالصدق والحياد غالباً .

وقد تقرر أحكاماً حسنة تتفق مع الفطرة التي هي صفة الإسلام الأولىٰ .

وقد تشرح وسائل جيدة لأهداف يسعىٰ إليها الدين ، ويترك ما يوصل إليها لاجتهادنا العادي .

وإلى جانب ذلك فقد تتضمن أخطاء ونظرات شاردة ، وعلى كل حال فالإسلام إذا تكلم فهو أهدىٰ منها سبيلاً ، وأصدق قيلا . .

وقد تناول آباؤنا فلسفة اليونان ، ونشاطاتهم العقلية ، فمنهم من فتن بها إلى حد الغفلة ، ومنهم من ردها جملة وتفصيلاً ، ومنهم من أخذ وردَّ ، ونظر ونقد . . !!

وإني لأعجب من مفكر مسلم يقبل خرافة العقول العشرة التي اختلقها **أرسطو** ، ومن مفكر آخر يقبل الهراء المذكور عن مدينة **أفلاطون** الفاضلة ، ولا أعرف سبب هذه الغفلات ؟

وقد درسنا جملة من العلوم الإنسانية في شبابنا ، ولانزال نتابع القراءة والمقابلة في قضايا كثيرة . . .

وإنما دفعني إلى الوصاة باستمرار هذه الدراسة أمران :

أنها تعرض الواقع الأدبي والمادي للبشرية كلها ، ومعرفة هذا الواقع مطلوبة .

وأنها قد تتضمن مقترحات لخير الانسانية أجود من المقترحات التي يعرضها أصحاب التدين المغشوش ، أو السطحي للإصلاح العام !

إد يوجد بين المتدينين للأسف من يعتبر الدساتير بدعة مردودة ، لأن ضبط نواقض الوضوء أهم عنده من ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم . . !

الحاجـــــــــة إلى إحيـــــاء الثقافـــة الذاتية ..

وأشعر في هذه الأيام بأن الحاجة ماسة إلى إحياء ثقافتنا الذاتية ، وتنقية جوها ، وتوسيع دائرتها ، فإن الاستعمار الثقافي الملحاح نجح في إعطاب شخصيتنا المعنوية ، وفتنة ألوف مؤلفة عن عقائدنا ، وعباداتنا ، وأخلاقنا ، كما نجح في بلبلة ألسنتنا ، وطيٍّ شرائعنا ، وتحقير شعائرنا ، ودفعنا في المجتمع الدولي بلا صبغة حقيقية وهوية متميزة ، وهذا هو الانهزام التام . . ! !

إن الرجل عندنا قد ينال أعلى الإجازات العلمية في الطب أو القانون ، وقد يعين في أعلى المناصب بأوربا وأميركا ، لكن صلته بدينة صفر ، وعلاقته بجنسه هواء ، على حين يكون زميله اليهودي كالإعصار في خدمة الصهيونية ، وزميله النصراني أسرع من البرق في خدمة الاستعمار ! فهل هذا المسلم البارد الشعور ، أو المرتد القلب يجدي على أمته شيئاً ؟ إنه كالجندي المرتزق بسلاحه يخدم أي مبدأ على ملء بطنه وإيثار عاجلته . .

وانتشار التعليم المدني في بلادنا على أساس تجريده من ثقافتنا الذاتية ، وانتمائنا المحدَّد شيء يضر ولا يسرّ ، ويقلق ولا يطمئن . .

وعندما نعود إلى قواعدنا الروحية والفكرية لابد من تجنب محظورات كثيرة . .

- **العقائد** عندنا أقلّ كماً وكيفاً من الكتب التي تعرضها ، ومجادلات الفراغ التي حفّتْ بها والتي شعَّبت قضاياها دونما سبب . . وهي تستفاد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في وقت قليل ، والمهم أن تتشبث بالقلب ، وتتحول إلى قوة دافعة ، ونور يضيء الطريق . .
- **العبادات وعلومها** ليست بحراً طامًّا لا ساحل له . . إنها في ديننا سهلة الفهم والأداء ! ويوجد ناس يحبون أن يشرحوا الطهارة للصلاة في شهر من الزمان (!) إن هذا المسلك ضرب من البطالة المقنّعة ، وقد شاع في عصور شتىٰ اعتبار الكلام في الإسلام هو العمل الأول والأخير به .

  وما كان سلفنا العظيم كذلك قط ، كان يتعلم دينه في ساعات قلائل ، ثم يشق ميادين الحياة به مستبطناً روحه ، منطلقاً إلى أهدافه في جد وصدق . .

  نعم قد يوجد متخصصون في دراسات معينة ، وللتخصص رجالاته ومطالبه ، كأي ميدان علميٍّ آخر .
- **بناء الأفراد على الأخلاق الفاضلة ، وبناء المجتمعات على التقاليد الشريفة ركن ركين في دين الله ، والتربية كالزراعة والصناعة عمل يحتاج إلى جهد طويل** ، وتشترك فيه عناصر كثيرة ، وليس كلاماً مرسلاً ، أو خطابة حماسية . .

كيف نخلِّص النفوس من الحرص والحقد والكبر والرياء ؟

كيف ننشيء ناساً يحبون الإتقان ، ويعشقون الجمال والإجادة ، ويرفضون الخلل والفوضى ؟

في أمة يكره دينها الأمر الفُرُط ، لماذا ينتشر التسيُّب في إداراتها ؟ وفي أمة يُبْنىٰ فقهها على النظافة لماذا تنتشر القمامة والوساخة ؟

إن تقاليد الرياء تقتل الرجال والنساء في أكلهم وشربهم ولباسهم وزواجهم وأحوالهم كلها ، أين السهولة والإخلاص والبساطة ، وديننا أساسه الفطرة ؟

أحياناً أنظر إلى حضارة الغرب فأجدها ـ على ما بها ـ أقرب إلى فطرة الله من ضروب التكلف والتزوير التي نمارسها بالليل والنهار . . . فنغضب ربنا ونشقي أنفسنا !

ما أفدح الثمن الذي تدفعه أمتنا للحفاظ على تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، وعلى تزويق الظاهر مع خواء الباطن !!

التربيـــــــة المنشـــــــودة ..

إن التربية المنشودة ليست شيئاً سهلاً ، إنها معاناة وجهد يقوم بهما المربِّي والمربَّى معاً وتشترك في تحقيق النتيجة عناصر أخرى ، في مقدمتها : البيت والبيئة والسلطة الحاكمة ، كما يشترك الماء والشعاع ، والحر أو البرد في إنضاج الثمار . .

وعظة المنبر ، ونصيحة المدرس وحدهما لا تصنعان الناشىء ، وإن كان لهما أثرهما .

إن علم المنطق ، كما عرفوه ، آلة قانونية تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر ، ومع ذلك فهذا العلم لا يصنع مفكراً .

وعلم العروض والقوافي قد يحصي بحور القصائد ، ويكشف ما في التفاعيل من خبن وقبض ، وهيهات أن يصنع شاعراً .

وقد ألفنا أن نتلقى الدين كلاماً أو رسوماً ، بيد أن هذا التلقي لا يصنع زكاة الأنفس ، ولن تفلح نفس فقدت هذه الزكاة ، ولن يفلح امرؤ إذا تحرك عقله

تحركت معه قيود الخرافة أو الأوهام التي نسجها الخيال . . ! !

والعناصر المؤثرة في التربية لابد من تجانسها وتناسقها ، أي : لابد أن ينتظمها ولاء واحد ، وأن تتدافع إلى هدف واحد ، فإذا كان البيت مسلماً ملتزماً لتعاليم الدين فإن عمله سيبطل أو يضعف إذا كانت الحكومة علمانية والمدرسة مدنية . .

والخلل الذي نلاحظه على المسلمين المعاصرين يعود كفل ضخم منه على هذا التقطع والتضاد في وسائل التوجيه ، فإن الاستعمار العالمي استمات في إقامة أجهزة اجتماعية واقتصادية وسياسية تضرب التربية الإسلامية بخبث وقساوة ، فما ينجو إلا من عصم الله . .

وأكره أن أحمِّل الاستعمار كل هزائمنا المادية والأدبية ، وأن أفرَّ من تبعات التقصير الذي عرقل خطاي من قديم ، إننا نحن المسلمين عُنينا بجانب من الأخلاق وأهملنا جوانب ذات بال ، وظننَّا أن هذا الإهمال يغفر أو يجبر بالانتماء إلى عقيدة ما ، والمداومة على عبادة ما . . ! !

أخذنا من الأخلاق جوانبها القريبة ، فقد نفهم الأمانة على أنها الوديعة ، ونردّ ما استودعنا الآخرون إياه ، أما أن المنصب أمانة ، لا يجوز استغلاله لمآرب خاص ، ولا يجوز الإخلال بأعبائه الجسام فهذا شأن آخر . !

ويغلب أن يكون طلب المنصب للاستغناء والاستعلاء ، والبحث عن الذات لا البحث عن مصالح الأمة . .

والصدق خلق معروف ، ويغلب أن نصدق في القول لا في العمل ، لأن الصدق في العمل صعب ، إنه إحقاق الحق وإبطال الباطل ، والتزام السنن التي قامت عليها السموات والأرض .

وقد يتقاضانا هذا أن ننتخب الأصلح ، ولو كان من غير قرابتنا ، وأن نؤثر

بالوظيفة فقيراً ونطرح غنياً ، وليس يقدر على هذا إلا . . الرجال . .

وحب النفس من طباع البشر ، فإلى أي مدى يهيمن هذا الطبع على مسالكنا ؟ إن السيارة تقدم ، فيسبق الرجل المرأة ، ويتخطىٰ الكبير الصغير ، ويتحرك هذا الشعور الهابط في عشرات المعاملات ! الكل يقول : نفسي نفسي ! فهل هذا السلوك هو التفسير المنتظر لقول رسول الله ﷺ « **لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه** » ؟ .

هل وضعنا تنفيذا عملياً يكفكف شرور هذه الأنانية الصغيرة ، ويواري هذا الاحساس الحيواني في دماء الناس ؟

إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، ونكاد نحن نكون قد قررنا التقصير في كل شيء !

وقد بحثت عن السبب وراء هذا **الخراب النفسي** ، وهديت إلى شيء قد يكون الحق ، أو بعض الحق ، **إن المغالاة في تقدير الجانب الغيبيً من الدين تتم على حساب الجانب العملي أو الواقعي** ، وهذا خطأ !

رأيت تاجرا يبيع السلعة لأحد الناس بأغلى من سعرها ، فقلت له : **لم تغبن هذا المشتري وهو مسترسل معك ؟** قال : **ألا تعرفه ، إنه فلان الذي ينكر كرامات الأولياء !** قلت : **ينكرها أو يقرها ، يجب أن تعامله بشرف !** قال : **هذا قليل الدين و . . .** . قلت له : **ليكن يهودياً أو نصرانياً فاستغلاله لا يجوز ، والخداع حرام مع المؤمن والكافر . . !!** أتظن إيمانك بالكرامات مسقطاً لفضائل الأخلاق . .

ولاحظت أن شاباً يتكلم بحقد عن أحد الدعاة ، قلت : **ماتنقم منه ؟** قال : **ما يعرف السنة ! ألا ترى إسباله لثوبه ؟** وما يحسن الصلاة ! **يقعد** وقدماه على هيئة كذا !! قلت : تكره مسلماً وتتمنىٰ له الشر لهذه الصغائر ؟ إن

تضخيم هذه الأمور دليل مرض نفسي ، ومعصية قلبك أبعد عن المغفرة من اضطراب مظهره ، ولعله أقرب إلى الله منك . . !!

وعلى هذا النحو ترىٰ رجلاً يتبع مذهباً في العقيدة ، أو في فقة الفروع ، فيحسب أن اهتداءه إلى هذا المعنى ، أو إلى هذا المسلك ، قد جمع له المجد من أطرافه ، فلا حرج عليه أن يتصرف كيف يشاء ، وكأنما قال الله له : **افعل ما شئت فقد غفرت لك !!**

ومن هنا استهان كثير من الذاكرين ، أو الدراسين لبعض السنن ، بمعاقد الأخلاق وقواعد الآداب ، **كما استهانوا بشؤون الحياة ، وضبط مجراها ، وامتلاك زمامها ، فكانوا نكبة على الدين والدنيا معاً ، ولقي الإسلام على أيديهم هزائم نكراء !!**

والأمراض الخلقية التي تصاب الأمم بها ، مع انتشار الفساد السياسي ، كثيرة ، وهي تختلف من عصر إلى عصر ، ولسنا بصدد احصائها ، وإنما نتساءل فقط : **ماذا يعنيه تزوير انتخابات في قطرٍ ما ؟؟**

إن هذا التزوير يحدث دماراً أخلاقياً أوسع من الدمار الماديّ الذي يحدثه أي زلزال رهيب ! جيش من الرجال ذوي المناصب الكبرىٰ والصغرى يتحول إلى خلية نحل في مصنع للأكاذيب واسع الدائرة ، هادر الآلات ، يعاون بعضه بعضاً في اختلاق الآراء وتسجيلها ، وتصعيدها وترحيلها من بلد إلى بلد ، ثم تلتقي آخر الأمر كما تلتقي شبكة المجاري القذرة لتخبر العالم كله أن فلاناً أحرز من أصوات الناخبين كذا وكذا . . . ونجح نجاحاً كاسحاً . . !!!

وعندما يمسي الناس ويصبحون على هذا التكاذب المفضوح ، أيكون الصدق عملة رائجة أم مزجاة ؟ **أتستقر في المجتمع تقاليد الشرف أم تقاليد اللصوصية ؟** أيتقدم أهل الأدب والتقوىٰ أم يهال عليهم التراب ؟

إن دعائم التربية تحتاج إلى حراسة مشددة بعد أن يتم استنقاذها من هذا البلاء المبين . . !

وعرض ثقافتنا الذاتية على الناس في هذه الأيام ينبغي أن يصحبه ما اكتنفها على مرّ العصور . . ونحن نذكر على عجل أن المسلمين في العصر النبوي ، ثم في عصر الخلافة الراشدة ، لم تكن لديهم هذه البحوث المطوَّلة في أصول الدين وفروعه ، كانت آيات أو سور من القرآن الكريم ، وجملة من الأحاديث الصحيحة هي كل ما يعرفون ـ حاشا المتخصصين وأهل الفتوى ـ وكان فقه العبادات يتناقل بالأسلوب العمليِّ . . ثم يتوجه الجمهور بعد ذلك إلى الكدح والجهاد وإعلاء كلمة الله !!

ثم استفاضت الدراسات الدينية ، وكثرت البحوث في كل ميدان . . ترىٰ هل هذه السعة للتحلِّي والتسلِّي أم لمزيد من الخشية والتقىٰ . . ؟

المقرر عندنا أن المرء مسؤول عن علمه ماذا عمل به؟

والذي رأيته وأنا أعمل في ميدان الدَعوة من أربعين سنة أو يزيد ، أن أكثر هذه المعارف فضول ، وأن الناس يقبلون عليها تزجية للفراغ ، ومدافعة للبطالة . . وأن عشر ما يعلمون يكفيهم في فقه الإسلام كله ، ويبقىٰ عليهم بعد ذلك أن ينصرفوا إلى العمل المثمر .

والقرن الرابع عشر ينتهي ، ثم يجيء القرن الخامس عشر ، ومشكلات الأمة الاسلامية تتعقد وتتضاعف

والليالي من الزمان حبالىٰ مثقلات يلدن كل عجيبة !

الأعداء تنمو أطماعهم ، وتربو ضغائنهم ، وتتقارب مسافة الخلف بينهم ، والتخلُّف الحضاري عندنا يثير الأسىٰ ، ومع ذلك كله فإن بعض حملة العلم الديني يَسْتَحْيِي من الآراء المدفونة ما يثير الغثيان !

وبدلاً من أن يُوجِّه شباب القرن الجديد إلىٰ العمل المناسب لخدمة دينهم ، يديرهم في حلقة مفرغة من القضايا التي أوجدها الفراغ أيام الفراغ . .

قلت لواحد من هؤلاء : إن الفكر الديني سمن ونما له كرش من هذه القضايا ، وما تعود له صحته إلا إذا ذهبت هذه السمنة ، واختفى هذا الكرش ، واشتغل المسلمون بعلوم الحياة التي ينصفون بها دينهم المُحْرَج ، ويردون بها أعداء متوقحين . .

وهنا نتكلم عن الثقافة الأخرىٰ المقابلة لثقافتنا التقليدية ، أو العلم الذي لا وطن له كما يقال !

لقد فكرت يوماً في « المطبعة ومخترعها » ووددت لو أن هذا المخترع النابه رجل مسلم عربي أو غير عربي ، فإن المعروف لدينا أن أول كلمة في وحي الله لنبينا « اقرأ » لكن هذا الجهاز بدأ ساذجاً في الصين ، ثم تحسن كثيراً في ألمانيا ، وبلغ حداً من الكمال في هذه الأيام بعيداً عن أرض الإسلام !!

تســـــاءلت : لمـــــاذا ؟

إن هذا الاختراع وغيره ولد ونما بعيداً عن مجتمعاتنا ، فهل نحن بشر دون البشر ؟

وسمعت صحافياً يقول عن خبرة : إن الصحراء الغربية مليئة بالنفط .

فقلت : لماذا لايستخرج ؟ قال : إن الشركات الأجنبية ترجىء ذلك إلى حينه !

قلت : وما دخل الشركات الأجنبية ؟ قال : هي التي تملك أدوات التنقيب ، وتتعرف بأجهزتها على الأماكن الحافلة بالمادة الثمينة !! وهمست إلى نفسي : ونحن لانعرف الأماكن ، ولا نملك الأدوات ، لماذا ؟

ويجب أن نعرف الإجابة على هذه الأسئلة ! إننا لسنا فوق المساءلة ! إن المسلمين الآن خمس العالم أو ربعه ، ولهم دينهم ودعاواهم وآمالهم ! لقد كان المفروض أن يكونوا للعالم مرشدين ، فماذا أزرىٰ بهم ؟ وكان مفروضاً أن تكون يدهم العليا بالعطاء الأدبي والمادي فماذا عراهم ؟

هل لدينهم أثر في هذا العجز ؟ والجواب السريع : كلا كلا ، فما يوجد كتاب ينتمي الى السماء فيه تنشيط للعقل ، وإطلاق للمواهب كالقرآن الكريم ! وماذا بعْد أن يقال للناس إن الله سخر لكم الكون كله ، سماءه وأرضه ، فاهبطوا واصعدوا وسيحوا وقرُّوا كيف تشاؤ ون ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً** . . ﴾ ! ! (**لقمان : ٢٠**) .

هَلّ المسلمون دون البشر ، ففي بصرهم قصر ، وفي فكرهم ضحالة ، وفي هممهم بلادة ؟؟ كلا كلا ، فقد سادوا العالم كله أعصاراً ، ودخلوا في عراك فناء أو بقاء مع أعتىٰ أمم الأرض ، وخرجوا من ميادين الوغىٰ منتصرين بعد جلاد وحشيٍّ ! !

إذن ما السبب فيما عرا العقل الانسانيّ ـ بعد ـ من خمول ـ وما أصاب جماهير المسلمين من كلال سلَّطَ عليهم ذئاب الأرض تنهشهم من كل جانب ، ذئاب الأرض ؟ لا بل ذبابها . !؟

إن يهودياً من « **لوس انجلوس** » بالولايات المتحدة جاء إلى فلسطين يطلق الرصاص على أهل « **الخليل** » يريد استخراجهم من مساكنهم واحتياز الأرض لنفسه !

إن البغاث بأرضنا يستنسرُ ! !

أصبـــــــع الاتهـــــــام ..

وأقول في ايجاز وصراحة : إن أصابع الاتهام تشير إلى صنفين من الحكام والعلماء جرُّوا على أمتنا هذا التخلّف المهين خلال قرون متطاولة ، وكانوا السبب في الأمراض التي أقعدتها في وقت انطلق فيه أهل الأرض ينسفون العقبات ، فلم يكفهم أن بلغوا السحاب حتى غزوا الفضاء ، ولم يكفهم أن بنوا الجواري في البحر كالأعلام حتىٰ غاصوا في أجواف البحار يحملون معهم « الرؤوس النووية » ذات الدمار الشامل .

في رأيي أن الاستبداد السياسي من أول أسباب الشلل الفكري عند المسلمين ، إنه ليس هيناً أن يسير الإنسان في الطريق خائفاً يترقب ، فقد تهوي عصا على أم رأسه تودي بحياته ، أو تناله صفعة على قفاه تودي بكرامته ، أو يؤخذ بتلابيبه فيرمىٰ في السجن لا يدري شيئاً عن أهله وولده !!

إن الحاجة إلى الاستقرار النفسي كالحاجة إلى القوت ، وكان الخليل ابراهيم يقدر حقوق الانسان الأدبية والمادية معاً عندما جأر ـ قبيل إنشاء مكة ـ ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُق أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ (البقرة : ١٢٦)

والجنديّ المأمور بضرب الناس لا يبالي أن يسحق تحت حذائه أكبر مُخٍّ في العالمين ، لأنه لا يميز بين مخ ومخ ، ولا يدري إلا أنه مكلّف بالضرب ، إنه آلة بشرية في يد جبار . .

وعندما يصف القرآن الكريم سياسة الفراعنة يسلك الآمر والمأمور في نظام واحد ﴿ إِنَّ فِرعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئِين ﴾ (القصص : ٨)

وقد يضفي على الجميع الطابع العسكري القاسي ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

الْجُنُودِ ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . والله مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج : ٢٠) .

والمستبد لا يرىٰ إلا نفسه ، ولا يبصر إلا مصلحته ، ولا يقرِّبُ منه إلا من يتملقه ويترضاه ، وأذكر أنه في بقعة ما من أرض الله ـ لا أقدر على تحديدها ـ ركب وزير مع رئيسه ، الذي كان يقود سيارته للتسلية ، فاصطدمت السيارة بشجرة على جانب الطريق ، ونزل الوزير مسرعاً ليقول لسيده : إن قيادتك للسيارة صحيحة ولكن الشجرة كانت تقف خطأ . . !!

في هذا الجو الكالح من الزلفىٰ والاستعلاء تموت المواهب النفسية ، فإذا انضم إلىٰ الاستبداد الأعمىٰ تضييق في الرزق ، وأضحىٰ المال عطاء يمرّ من بين أصابع الفرد الحاكم ، فهو يقبض ويبسط ، فعفاء على الأخلاق والذمم . .

عندما كنت أقرأ قصة اختراع الآلة البخارية كنت أرىٰ الشاب الانكليزي يتابع ببصره رفع البخار لغطاء الآنية ، ويفكر بأناة في استغلال هذه القوة لمصلحة البشر ، كان مطمئن البال وهو يتأمل ويستنتج ، إن أحداً لن يجرَّه إلىٰ دار العمدة ليضرب مائة سوط على تصرفه ، إنه لن يقف أمام ضابط يقول له : فكر فيما ينفعك « ياروح أمك » كما يجري على كثير من الألسنة في الشرق الإسلامي (!) كانت الكرامة الأدبية والمادية قد تقررت للجماهير في بلده بثمن رهيب ، دفعه ملك انجلترا من رأسه . . !!

ولا أستطيع التوسع في هذا البحث ، وحبذا لو تولت لجنة جامعية استقصاء آثار الحكم الفردي على الفكر الإسلامي في شتى العصور . .

أما دور المتحدثين في الدين الذين وقفوا النشاط العلمي ، فيظهر أولاً في البحوث الكلامية الغيبية ، والفروع الفقهية الوهمية ، والكراسات التي حفلت بحَشْو لا آخر له ، ثم عدَّت ذلك كله هو العلم الذي لا علم معه .

وبذلك قطعت الطريق على طب ابن سينا ، وكيمياء جابر ، وبصريات ابن الهيثم ، ولوغاريتمات الخوارزمي ، بل إن معرفة التقدم العلمي عند العرب لا تجد مراجعه إلا في مكتبات الغرب ، وعند المنصفين من المؤلفين الأوربيين !

أما جهود آبائنا في علوم الكون والحياة والطب والفنون الحربية فهي أقل من أن تذكر أو يؤرخ لها . . !!

إن الجهاز العصبيَّ للإنسان يضنيه ما اخترعه الغلاة والمخرفون من عبادات وأوراد ، ولا يبقى له وقت يستجمُّ فيه ، ويعكف بعده على التأمل والاختراع . .

عندما يكلَّف مسلم ـ بعد ماورد من أذكار اليوم والليلة ـ أن يقول : يا لطيف عشرة آلاف مرة ، فماذا يبقىٰ له من فكر يكتشف به المجهول أو يخترع به شيئاً . . ؟

لو استراح في نومه ، وقام يتدرَّب على عمل عسكري في البر أو البحر أو الجو ، لكان ذلك أجدىٰ عليه وعلى الإسلام ، إن ربنا تبارك اسمه أعفى المجاهدين من قيام الليل حتى يوفر لهم القدرة على جهاد النهار ، وكذلك أعفى التجار حتى يتفوقوا في الميدان الاقتصادي ، وقال رسول الله ﷺ : « من قام بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه . . »

لكن الفكر العام عند جمهور المسلمين أن علوم الكون والحياة نافلة ، ونحن نستميت في تفهيم الشباب الآن أن كلمة التوحيد مهددة مالم نبرع في هذه العلوم . . !!

وقد رأيت أحد طلاب الطب يقتني أسفاراً ضخمة في الفقه والحديث ، فأشحت عنها قائلا :

أولىٰ بك أن تقتني هذه الأسفار الضخام في المعرفة التي تخصصت لها ،

لماذا لا تنافسون أطباء « لندن » و « باريس » في رسوخهم وشموخهم بالمزيد من الاطلاع والتعمّق ؟

وذكرت أن طبيباً شاباً من أصدقائي كان يتحدث مع أستاذ له في « الخلية » فإذا الأستاذ يمد يده إلى رفٍّ قريب ويتناول مجلّداً كبيراً ويناوله الطبيب الدارس ، وإذا المجلَّد كله عن « الخليَّة » الحية وما أودع الله فيها من أسرار . . .

إن ألوفاً مؤلفة من الكتب العلمية تساند الحضارة الحديثة ، وتضمن لها هيمنة على شؤون الدنيا في كل ناحية من نواحي الحياة ، والقوم يدرسون بعشق هذه المواد كلها في الوقت الذي أجد فيه طالباً جامعياً في إحدىٰ الكليات العملية مشغولاً بالرد على الجهمية !!

الفصل الثالث

كـــــلام فـــي الإســـــــلام

قلت لأحد الناس :

تعرف فلاناً ؟ فإن لي صديقاً يحب الاتصال به ، ولعله يريد أن يصاهره ، أو يشاركه في تجارة كبيرة !

قـــــال :

أعرفه معرفة حسنة ، إنه متوسط العمر ، قصير القامة أسمر الملامح !

قلــــــت :

ثم مــــــاذا .

قـــــال :

له رباط عنق جميل ! وحذاؤه لامع ! وعندما يتحرك . . . فأسرعت أنا بإكمال الوصف ، فقلت في سخرية :

عندما يتحرك يكون مرح الأعطاف حلو اللفتات !!

قـــــــال :

ما تعني بهذا الهزء ؟

قلـــــــت :

السخرية منك ! أهذا وصف تقدمه لإنسان ؟ إنك تشبه بعض المتحدثين عن الإسلام في هذا العصر الأنكد ! إنهم يعرفون الناس به فلا يزيدونهم إلاَّ جهلاً ، وربما صَدُّوهم عنه .. يجعلونه كائناً ، محلوق الشارب ، مكشر الأنياب ، مكحول العينين ، كميش الثياب .. الخ

التعريف يتجه إلى الحقائق الذاتية والعناصر المهمة .. إن ديننا مجهول عند الكثيرين ، الناس يريدون وصفاً للعقل الإسلامي ، والضمير الإسلامي ، والخلق الإسلامي ، والحكم الإسلامي .. يريدون أن يعرفوا الأسرة كما يبنيها الإسلام ، والدنيا كما ينشدها الإسلام ، وموازين العدالة كما ينصبها الإسلام ..

إنني أعتقد أن انتشار الكفر في العالم يقع نصف أوزاره على متدينين بَغَّضُوا الله إلى خلقه بسوء كلامهم أو سوء صنيعهم !

وما أرتاب في أن الشيوعية ما راجت في أوربا وغير أوربا إلا لأن الأحبار والرهبان أيأسوا الكادحين من عدالة السماء ، وسدُّوا في وجوههم أبواب الرحمة ، فاتجهوا إلى السراب يحسبونه العباب ..

واليوم يقوم ناس من المسلمين بدور الكهان القدامىٰ ، فيصورون الإسلام ديناً دمويَّ المزاج ، شرس المسلك ، يؤخر اللطف ، ويقدم العنف ، ويهتم بقصِّ الأظافر والأشعار أكثر مما يهتم بقصِّ زوائد الأنانية وغمط الناس !! ..

والصورة التي تقدَّم ـ عالمياً ـ لدار الإسلام أنها الدار التي ينتهب فيها المال العام ، ويسودها حكم الفرد ، وتهان فيها كرامة المرأة ، بل تضيع حقوقها . .

وأن شوارعها ملأىٰ بالقمامة ، ومدنها وقراها مظهر التخلّف المادي والأدبي ، وأن الفوضى والتقطع هما الرباط الذي يسود الجماهير . . .

وأن المصلحين الدينيين لاجؤار لهم إلا بحرب التصوير والغناء والسفور والتلفاز ، وأن العودة الى الاسلام كما يطلبها الشباب لا تعني إلا العودة إلى الهمجية الأولى . . ! ! **ومعنىٰ ذلك كله أن الحضارة الإنسانية في خطر . . . ! !**

هل تسرُّنا هذه الصورة الكئيبة التي ترسم لنا ؟

إن أعداءنا يكذبون علينا ، بيد أننا نشجعهم على الكذب حين يضطرب فقهنا لديننا ، ويضطرب عملنا له ، وتكون حياتنا الخاصة والعامة بعيدة عن جوهر الدين وغاياته العظيمة . .

ذكر لي صديق ثقة أن رجلاً أمريكياً دخل الإسلام بعد دراسة متعمقة ، ثم قادته الأيام إلى بلاد الإسلام في عملٍ مًا ، وعاد الرجل مذعوراً يقول : الحمد لله الذي عرفني الإسلام قبل أن أرىٰ المسلمين . . !

إنه توجد ردَّة جزئية في بعض بلاد الإسلام ، وفي بعض آخر تقصير مكشوف ، كما يوجد جهل فاضح في أرجاء كثيرة . .

وهناك نهضة مخلصة ينقصها الفقهُ والتجربة ، ونهضات صادقة يخونها الرسميون من علماء الدين أو يتثاقلون في نصرتها .

وهناك نفر من الحكام يحبون الإسلام حباً جماً ، ولا يدرون كيف يخدمونه ! وهناك حكام عالنوا بتأييدهم للعلمانية ، ولسياسة المرتد التركي مصطفى كمال . . !

جملـــــــــــة حقـــــــائق ..

ونريد أن نثبت هنا جملة من الحقائق لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان ..

إنني أؤ يد رأي ابن خلدون في العرب لا بل إن وقائع الدهور هى التي أمست تؤكد هذا الرأي ! **الرجل يرىٰ أن العرب يستحيل أن يقوم لهم مُلك إلا على أساس نبوّة ، أو أن تقوم لهم دولة إلا على أساس دين !!**

الجنس العربي جنس له غرائزه الحادَّة ، ومشاعره الجياشة ، وخياله الواسع ، وخصائصه العقلية الحسنة ، وهذه السمات إذا لم تضبطها كوابح « **فرامل** » حديدية هوت بصاحبها في عرض الطريق ! وإذا واتتها هذه الضوابط وراء نهضة دينية جيدة ، حلقت بها في الأوج ..

وشواهد ذلك واضحة في التاريخ العربي المديد

في التّـــــــــاريخ القـــــديم :

كان للعرب وجود في الأعصار القديمة ، **عادٌ** في الأحقاف جنوبي الجزيرة ، **وثمود** في الحجر شمالي الحجاز ، **ومدين** شرقي سيناء ، وقرى **المؤتفكة** في الأردنّ ، **لكن هذا الوجود عدت عليه عوادي الفناء بسبب أخلاق الترف ، والجبروت ، والشذوذ ، والتظالم ..**

وقد حكىٰ القرآن الكريم قصص الأنبياء العرب في أممهم ، وما لاقاه **هود وصالح وشعيب ولوط** من صدود وغطرسة ! فقضىٰ فيهم الحق قضاءه ، واخترمتهم العقوبات التى حلت بسائر المجرمين .

﴿ فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٠)

حتى أهل مكة ، لما بغت فيها طسم وجديس أحيط بهم ، وأصبحوا أحاديث ملعونة ، فقال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلىٰ نحن كنَّا أهلها فأزالنا ! ... صروف اللَّيالي والجدود العواثر

وليس للحظ العاثر دخل في حرب الإبادة التي شنتها الأقدار على أولئك العرب الفجار ! إن العرب البائدة تمردت على الله فأذاقها بأسه ! .

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَروُا وَهَلْ نُجَازِي إلاَّ الْكَفُورَ ﴾ (سبأ : ١٧)

وما بقي من هذه الأجيال بقي ليروي لنا ما يعتبر به أولو الأبصار . .

وجـــــاء الإســـــلام ..

ووثب التاريخ وثبة فسيحة ، وظهر العرب مرة ثانية على صعيد الحياة ، لقد اصطفاهم الله ليحملوا الرسالة الخاتمة بعدما ربَّاهم « محمد » ﷺ بتعاليمها ، وأضاء حناياهم بأشعتها . .

وفي خلال ربع قرن تقريباً كان نبيُّ الإنسانية قد استطاع إعداد جيش من المعلمين والمجاهدين ، من رهبان الليل وفرسان النهار ، من عشاق الخلد ومصلحي الأرض ، سبحان من أبدع **محمداً** ﷺ لينشىء هذا الجيل من الأصحاب البررة المهرة ، الذين ساحوا في البلاد واجتاحوا جذور الفساد ،

وكانوا خير أمة أخرجت للناس !!

في هذا الدور من الوجود العربي امتزجت خصائص جنس بحقائق رسالة ، وكانت كلمة « عروبة » ترادف كلمة « إسلام » ، وعرف العرب أنهم جسد روحه هذا الدين ، فهم به يتحركون وهو بهم ينطلق ، ليفتح السجون ويكسر القيود ، ويمكّن المستضعفين أن يتنفّسوا الصعداء ، ويخرجوا من ضيق الدنيا إلى سعة الإسلام ، ومن عباده العبادة إلى عبادة الله تبارك وتعالى . .

إن المدينة المنورة ـ عاصمة الاسلام يومئذ ـ كانت أحق بلد في الأرض بقيادة العالم ، لأن ما تقدمه من قيم ومناهج كان أرجح في ميزان الحق مما تقدمه رومية وأثينا ومصر وفارس والهند والصين ، إن العرب الأميين حوَّلهم الإسلام إلى أساتذة راسخين فضلاء ، بينما كانت العواصم الأخرىٰ تعجّ بعصابات من الكهنة الصغار ، والحكام الجبابرة ، والأثرياء اللصوص ، والجهالات المطبقة . . .

معـــــــالم النقلـــــــة الجديدة

وحتى لا يكون حديثنا دعوى مجردة نذكر معالم النُّقْلة التي حوَّلت العالم إلى أوضاعه الجديدة :

(أ) قام العقل الإسلاميّ على الحقائق وحدها ، ونَفْي الأوهام والظنون ، واعتمد على الفكر الذكيّ والحواس اليقظة في تقرير أنواع المعرفة ، وما كانت البشرية تدرك ذلك لولا القرآن الذي عدَّ الغباء ، وبلادة الحواس ، وقلة الوعي هي طريق النار . .

وعلى النسق البلاغي العالي في تعبير القرآن تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُون بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِك هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

والصياغة في الآية كما تقول : إن السقوط يتخيّر ذويه من كل كسول لا يذاكر دروسه ، ومن كل لاهٍ يهجر أساتذته . . .

إن الاسلام بظهوره العظيم أنشأ حركة فكرية ما كان للعالم عهد بها من قبل . . .

(ب) قام الخُلُق الاسلامي على نشدان الكمال في السلوك الانساني كلّه ، وصاحب الرسالة ﷺ يقول :

« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ويقول :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، إن الله يكره الفاحش البذيء ، وإن صاحب حسن الخلق يبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة » .

كان تدريس الأخلاق حكراً على بعض الفلاسفة يترفعون به في مجالسهم ، أو كان شارة تخصّ المُعَدِّين لعمل معين ، حتى جاء الإسلام فجعل الخُلُقَ الفاضل كالنقد المتداول ، يسود كل مجلس ، ويدخل كل سوق ، ويصبغ كل معاملة .

ورفض الإسلام قبول العبادات المعزولة عن مكارم الأخلاق المخلوطة بمنكر القول والعمل ، وكانت المراسيم العبادية قدبماً هي مظهر الفضل والامتياز . .

(جـ) والضمير الإسلامي (وهو القلب بتعبير الشرع) ضمير شديد الحساسية بالخير والشر ، وما يرضي الله وما يسخطه ، وهو معمور بالتقوى ، ومراقبة الله ، بعيد عن دوافع الرغبة العاجلة والخوف الخسيس ، موصول بالله وحده ، رضيٌّ بما عنده . . .

ولا تنسَ أن الضمير الاستعماري أباد سكان استراليا إلا قليلاً ، وأباد سكان أميركا إلا قليلاً ، لكي ينفرد بخيرات الأرض ! إنه ضمير تجاري جشع ، يتحرك بمنطق الربح والخسارة ، يتقهقر عند خوف العصا ، ويقدم عند أمن العقوبة . .

أما الضمير الإسلامي فهو محصَّن بمعاني التقوى ، محكوم بقوله تعالىٰ :

﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتىَ الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ . . **(الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩) وقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »**

(د) **والجسم في نظر الإسلام يجب أن يكون وضيئاً** ، والوضاءة شيء فوق الطهارة والجمال ، وأنواع الغسل التي أوجبها الدين تجعل المرء ناصع الجبين أغر الوجه ، ليس على الجلد درن ولا عرق ، ولا كدر .

ولم يعرف ـ قبل الإسلام ـ اهتمام بالجسد الإنسانيّ ، بل كانت علل الوساخة تفتك بالأوربيين .

ولم تعرف العواصم الأوربية الحمامات وأنواع التطهر إلا اقتباساً من الإسلام ، وتقليداً لأهله .

والكلام يطول في سنن الفطرة وحقوق الجسد ! وليس ذلك بداهة

عبادة للجسد ، أو ترجيحاً له على اللب والقلب ، ولكنه اهتمام بالشخصية الانسانية كلها .

والتجمُّل بالنسبة إلى المرأة ، هو المحافظة على تكوينها السليم ، وتقويمها الحسن ، وهو غير التبرج الذي يعني استثارة الآخرين ، ومحاولة فتنتهم . . !

الإســــــــــــلام والمـــــــرأة ..

(هـ) **والمرأة المسلمة إنسان كالرجل ، وهي شقيقته أمام تعاليم الإسلام كلها** ،وكانت المرأة محقورة الشأن عند العرب ، توأد طفلة ، وتُزْدَرى كبيرة ، وكان الأوربيون قديماً يتساءلون : **ألها روح مثل الرجل** ؟ وكان في الهند من يحكم بموتها حرقاً عندما يمرض زوجها ويموت في مرضه !! ما يجوز أن تبقىٰ بعده !!!

وافلاطون في مدينته الفاضلة يرىٰ شيوع المرأة بين الرجال !

حتى جاء الإسلام فغير هذه الأوضاع والأفكار ، واستخرج المرأة من البيت إلى المسجد خمس مرات كل يوم ، إذا كان ذلك لا ينقص عملها لولدها وزوجها ، وتقدير ذلك إليها . . !

ولم يمنعها من الجهاد إذا قدرت عليه ، وأوجبه عليها وعلى الرجال جميعاً عند الدفاع عن دار الاسلام . .

إن شخصية المرأة ولدت مع مجيء الرسالة الإسلامية ، وقد بلغ من تدليل النبي ﷺ لزوجاته أن حرم على نفسه بعض المباحات إرضاء لهن ، حتى نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَاأحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاة أَزْواجِك . . ﴾ ؟ (التحريم : ١) .

وما كان للمرأة هذا الامتداد في شخصيتها من قبل ، وإن كان الأمر قد سار في اتجاه آخر ، غلبة للتقاليد القديمة لا انسياقاً مع تعاليم الإسلام .

الأســـــــــرة وأهميتهـــا ..

(و) والأسرة في الإسلام من آيات الله ، قرن تكوينها بتكوين العالم أجمع قال تعـــالى :

﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها . . ﴾ (الروم : ٢١) .

ثم قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . ﴾ (الروم : ٢٢) .

وفي الفقه الإسلامي كلام طويل عن نظامها المادي ، وعن رسالتها الأدبية .

وهناك كلام عن عقد الزواج ، وتبادل الواجبات ، وحضانة الأولاد ، وأسلوب النفقة ، وآداب العشرة . . وطريقة حلِّ العقد إذا تعذر بقاؤه ، وأنصبة المواريث . . الخ

وهناك كلام عن الآثار الروحية والخلقية المربوطة بوجود الأسرة ، وكيف أن الأسرة امتداد للنوع الإنساني ، وللعقائد والعبادات والأخلاق التي أمر الإسلام بها وقام عليها . .

وحماية للأسرة حرَّم الإسلام الاختلاط الحيوانيَّ المعروف في بيئات شتىٰ ، وحرم كل ما يخدش العرض والحياء ، وقد قال لي صديق : إن كلمة « العرض » بمدلولها الشريف لا توجد لها ترجمة في اللغات الأخرىٰ !

وأنىٰ يوجد معناها في هذه المجتمعات التي تبيح أن يرقص الرجل مع امرأة أجنبية ، يحتضنها ويخطر بها في الحلبة ، وقد يكون زوجها الوغد حاضراً ينظر ولا يتحرج ، وقد يكون أبوها أو أخوها بين الحضور !!
إن الأسرة المحاطة في ديننا بهالة من الشرف والقداسة ، لا توجد في بلاد أخرىٰ ، وقد توجد على الورق فقط ، وإلى حين ، ثم عند البلوغ يكلف الفتىٰ ، أو تكلف الفتاة بشق الطريق وحدها لتكسب وتعيش . .

(ز) والمجتمع في الإسلام أسرة كبيرة تقوم على التعارف والتوادّ ، والناس على صعيد الأرض سواسية ، ولاؤهم لله لا لجنس ولا لتربة ، أكرمهم عند الله أتقاهم . .
أساس المعاملة « ليس منَّا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه »

الافتخار بالنسب مردود ، والاستكثار بالعزوة مرفوض ، والامتياز والسبق لمن تقدمه كفايته ، لا عراقته ولا وجاهته .
ومن هنا قاد الموالي العالم الإسلامي ، وتصدروا في ميادين الفتوىٰ والفقه ، والأدب واللغة ، وسبقوا العرب أصحاب الرسالة الأوائل ، ثم تصدَّروا في ميادين السياسة والحكم ، وقامت دول للماليك وشتى الأجناس ، كان لها أبعد الأثر في خدمة الإسلام . .

للمـــال وظيفـــــة اجتماعيـــــــة :

(حـ) وللمال في الإسلام وظيفة اجتماعية واسعة ، والحق الأول فيه لكاسبه الذي كدح في تحصيله وتأثيله ، فله أن يرتفقه ويصون به مروءته ، ويحمي به نفسه وأسرته ، ولكن ذلك لا يؤخر الحق المعلوم الذي أوجب الله إخراجه للفقراء والمساكين ، كما لا يهدر الحقوق الأخرى التي بينتها الشريعة . .

وقد وقع صراع مرير بين الواجدين والمعدمين أنتج أنظمة متفاوتة الكفر والمروق ، ولو أن الأغنياء رعوا حدود الله في طرق الكسب ، وسبل الانفاق لحقنت دماء ، وصينت حقوق ، ولكن من ضنَّ بالقليل الذي طلبه الله ، ضاع منه الكثير من المال ومن الأجر على سواء . .

وسيظهر موقف الاسلام واضحاً عندما نعرض صورة الحكم في العصر الأول . . .

الحكـــم أمانـــــــــة ومســــــؤولية :

(ط) والحكم في الإسلام أمانة ثقيلة يوجل منها الأقوياء فكيف يرنو إليها الضعفاء ؟ إنه ليس جنون العظمة عند محب للسلطة ، ولا الاعتداد بالنفس سواء كان هذا الاعتداد وليد قدرة ذاتية ، أو وليد حالـة مرضيَّة . . !!

إن الحكم ـ عند من يكلف به ـ مسؤولية فادحة أمام الله ، والحاكم أجير

عند جمهور المسلمين ، يرعى مصالحهم الدينية والمدنية لقاء ما يأخذ من مرتبات . .

ولننقل من سيرة أبي بكر ثم من سيرة عمر رضي الله عنهما ما يصوِّر هذه المعاني ، وما يكشف اجمالاً سياسة المال والحكم في الإسلام . .

قال أبو بكر لأم المؤمنين عائشة حين حضرته الوفاة :

« هذا يوم يُجْلَىَ لي عن غطائي ، وأشاهد جزائي ! إنْ فرحاً ، فدائم ، وإنْ ترحاً ، فمقيم . .

إني اضطلعت بإمامة هؤلاء الناس حين كان النكوص إضاعة ، والخذْلُ تفريطاً » ــ يعني أنه ما رغب في الخلافة ، ولا أحبها ، ولكنه أحسَّ أن الجبن عن قبول المنصب المعروض سيعرض الأمة لفتن شداد ، ولذلك يقول بعدُ « . . . فشهيدي الله ما كان يقيلنى إياه ـ ما كان يقبل مني تركه ـ . . . » .

ويذكرأبو بكر أنه ما أخذ من مال الأمة إلا النزر اليسير ، صفحة فيها لبن من ناقة خُصِّصت له من بيت المال ، فيقول :

فتبلَّغتُ بصَفْحتهم ، وتعلَّلْتُ بدِرَّة لِقحتهم ، وأقمت صلاتي معهم ، لا مختالاً أشراً ، ولا متكاثراً بطراً . . !! لم أَعْدُ ـ أتجاوز ـ سدَّ الجوعة ، وَوَرْيَ العورة ، وقواتة القوام ! ـ قدر مايعيش به من القوت الذي يمسك حياته ـ . . .

ثم يستشهد الخليفة الأول بالله أنه اضطُر للأكل من بيت المال دفعاً للجوع ، وأن أحشاءه كانت تمتعض لغثاثة الأكل الذي يتناوله ! ولكن المضطر يستسيغ المرَّ ! وعبارته هي « حاضري الله مِنْ طَوىً ممعِضٍ تهفو منه الأحشاء ، وتجبُ له الأمعاء ، فاضطررت إلى ذلك اضطرار المريض إلى

المَعِيف الآجن »

ثم يوصي الخليفة الْمحْتَضَرُ ابنته أن ترد على المسلمين ما أخذه من مالهم ، فيقول :

« فإذا أنا مِتُّ فردِّي إليهم صفحتهم ، وعبدهم ـ الذي كان يخدمه ـ ولقحتهم ـ الناقة التي كانت تحلب له ـ ورحاهم ، ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ، ودثارة ما تحتي اتقيتُ بها نزَّ الأرض ، وكان حشوها قطع السعف »

كانت « المرتبة » التي ينام عليها محشوَّة بقطع السعف . . !! قال الشيخ الخضري :

وكأن أبا بكر يرى أنه لا حقَّ له في بيت المال ـ نظير عمله ـ فأوصى بأرضه للمسلمين مقابل ما أخذ منهم .

أما بلاؤه الطويل في تثبيت قواعد الإسلام أمام المرتدين ، وإعداده الفذّ لحرب الفرس والروم ، فذاك جهاد عبدٍ يبتغي وجه الله ، ولا يطلب عليه أجراً . .

وظاهر أن الخليفة الأول جشَّم نفسه مالم يكلَّف به ، فإن الصحابة عن طيب نفس فرضوا له من المال العام ما يستحقه عدلاً ، وما لا حرج فيه أبداً . .

روى ابن سعد في طبقاته ، قال :

كان أبو بكر ينفق من استغلال ملكه وعمل يده وقد ظل ستة أشهر بعد خلافته وهو على حاله تلك ، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً . .

فأصبح يوماً وعلى ساعده أبراد ، وهو ذاهب إلى السوق ! فلقيه عمر ، فقال : أين تريد ؟ قال : إلى السوق !

قال : تصنع ماذا ، وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فقال : انطلق يفرض لك أبو عبيدة (أمين بيت المال) فلما ذهب إليه قال أبو عبيدة : أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ، ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، وكسوة الشتاء والصيف ، إذا أَخْلَقْتَ شيئاً رددته وأخذت غيره ! ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه . . .

قالت عائشة ــ فيما رواه الطبري ــ : كان منزل أبي بالسُّنح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة ، وكان قد حجَّر عليه حجرة من سعف فما زاد على ذلك حتى تحوَّل إلى منزله بالمدينة . .

مكث بعد البيعة ستة أشهر بهذه الحجرة من السَّعف !! سبحان الله ، لقد قرأت وصفاً لحوض السباحة المكيَّف الهواء الذي كان يتردد عليه الرفيق خروشوف على شاطىء البحر الأسود ، فشعرت بنفحة من الترف تلطف الجوّ وأنا أقرأ من بعيد ، فكيف لو سبحت فيه ؟!

إن ممثلي الشعب يأكلون هنيئاً ويشربون مرئياً من مال الشعب ، ويقولون عن الدين : إنه أفيون الشعوب ، وعن أمراء المؤمنين : انهم آكلو الشعوب ! ترى لو أن خروشوف بات ليلة واحدة في الحجرة المُمَرَّدة من سعف النخيل ، وتقلب على فراش من القشّ يقيه نَزَّ الأرض ورطوبتها ، ماذا كان يقول ؟

هل يبقى على قوله : إن الدين يخدِّر الشعوب ، وإن الخلفاء يأكلون الجماهير ؟ أم يعلم أن آكلي الشعوب قوم آخرون !!

في هذا المسكن المتواضع أقام الرجل الذي وضع الخطة لطرد هرقل من الشام إلى الأبد ، وطرد كسرى من عاصمته وكان يقيم في قصره الأبيض الذي

وصفه البحتري بقوله :

لست أدري أصنــع إنس لجـن سكنــوه أم صنـع جن لإنس ؟

وجاء بعد أبي بكر عمر بن الخطاب ، رجل الدولة العظيم ، وعبقريّ الحرب والسلام ، ومنصف الجماهير من رؤوسها !

والذي يعنينا هنا إبراز خلتين اثنتين من سيرته الماجدة :

شعوره الغامر بمسؤولية الحكم ، وقلقه من حسابه عنه أمام الله . .

ثم رفضه الصارم لكل ذرة من استغلال الحكم للنفس أو للآل . . ! !

في منقبته الأولىٰ ، نذكر قوله :

لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات ، لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب ـ يعني نفسه ـ ويشبه ذلك ما روي عنه أيضاً : **لو إن بغلاً عثر بالعراق لحسبت عمر مسؤولاً عنه : لمَ لمْ يسوِّ له الطريق ؟؟**

وعن أبي رواحة كتب عمر بن الخطاب إلى الولاة : « **اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ! إياكم والرشا ، والحكم بالهوى ، وأن تأخذوا الناس عند الغضب ، قوموا بالحق ولو ساعة من نهار . .** »

وخطب يوماً فقال : « **أيها الناس إني قد وُلِّيتُ عليكم ، ولولا رجاءُ أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدَّكم استضلاعاً بما ينوب من مُهِمِّ أموركم ، ما توليت ذلك منكم . . ولكفى عمرَ مُهِماً مُهِماًّ مُحزناً انتظار مواقف الحساب بأخْذِ حقوقكم ، كيف آخذها ، ووَضْعها ، أين أضعها ؟ وبالسير فيكم ، كيف أسير ؟ فَرَبِّيَ المستعان ، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركْه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده . .** »

أما بعده هو وأهله عن كل عمل يشم منه استغلال النفوذ فهاكم ما ذكره الأستاذ الخضري في محاضراته . . قال : **لما ترك ملك الروم الغزو - وشرع في الصلح - وكاتب عمر وقاربه ،سَيَّر إليه عمر** الرسل مع البريد فبعثت **أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب - وكانت زوجة لعمر - هدية إلى ملكة الروم ،** فيها طيب ومشارب وأحناش من أحناش النساء ، ودَسَّتْه إلى البريد فوصَّله لها ، وجمعت امرأة القيصر نساءها ، وقالت لهنَّ : **هذه هدية امرأة ملك العرب ، وبنت نبيهم !** وكاتبتها وأهدت لها ، وكان فيما أهدت عقد فاخر !

فلما انتهى البريد إلى **عمر** أمر بإمساكه ، ودعا : **الصلاة جامعة !!** فاجتمع الصحابة وصلى بهم عمر ركعتين ، ثم قال : **إنه لا خير في أمر أبرم بغير شورى ، قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم ، فأهدت لها امرأة ملك الروم ؟**

فقال قائلون : **هُوَ لَهَا بالذي أهدته إليها** - أي في مقابله - وليست امرأة الملك بذمَّة فتصانع به . . وقال آخرون : قد كنا نهدي الثياب لنستثيب - أي لنتلقى جزاءها هدية قد تكون أفضل -

قال عمـــــــر :

ولكن الرسول - الذي حمل - رسول المسلمين ، والبريد بريدهم . . ورأى عمر أن الهدية المرسلة إلى امرأته فاخرة ثمينة ، وأن العقد على صدر امرأته يقلقه ، فصادره لحساب بيت المال ، وأعطى امرأته ثمن ما أنفقت في هديتها الأولى . .

قال المؤرخون : **وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال : إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم يفعله إلا أضعفت عليه العقوبة . .**

إن عمر استعف وأعف أهله عن دانق من المال العام ، وكان مثل الخليفة الأول يكدح في خدمة الأمة ورسالتها إيماناً واحتساباً . .

لقد قدَّم المسلمون للدنيا في المجال الفردي والاجتماعي والسياسي مبادىء ونماذج شَدَهَتِ الناظرين ، وسحرت المراقبين .

إن العرب في العصر الوسيط لم ينطلقوا من فراغ ، لقد صبَّهم الإسلام في قوالبه ، ثم قذف بهم في المشارق والمغارب ، فأعادوا تشكيل العالم أجمع على نحو جديد . . وأسلست الجماهير قيادها للدين الوافد لأنها رأت فيه نجاتها وكرامتها . .

ومهما تعصبت الوثنية والصليبية والصهيونية ضد الإسلام ، فإن الحقائق الكبرى التي أشرق بها هذا الدين لن تستخفي عن العيون ، ولن تذيبها الضغائن السود !

ماذا كان في فارس الروم من مناهج الحكم التي طبقت في المدينة المنورة ؟ بل ماذا كان فيهما من سياسة الأخلاق وأصول التربية ؟؟

لقد كان من مصلحة الانسانية المجردة أن تختفي هذه الامبراطوريات البالية ، وهذه النحل المخرفة الجائرة ، وأن يطلع الإسلام على الدنيا ليزكيها ويعلى مستواها . . .

وفي العصر الحديث :

ثم تراخت الليالي ، وانقضت أيام وأيام ، وذهب عرب القرون الوسطى وطلع العصر الحديث على عرب آخرين ! إنها خلوف يتفرس المرء فيها فتغمر قلبه كآبة ثقيلة . .

وموقف أولئك العرب يحتاج إلى استبانة وتفصيل ، وإن كانت الهزائم المادية والمعنوية تغزو كل أفق وتكسوه بالقار .

هناك حديث مسموع بالمجالس ، ولغط يعم الميادين الثقافية والاجتماعية أن العروبة يمكن - بل يجب - أن تنفك عن الاسلام ، وأنه بعد هذا الفصل تكون الصدارة لها لا له . . . !!

إنه - إن صح له بقاء - سوف يكون تابعاً يتحرك بقدر ، ووفق ما يصدر له من أمر . !

وقد ولدت فكرة القومية العربية ، وشتى النزعات التي تشبهها لتضع جماهير المسلمين داخل هذا الإطار ، فالولاء للجنس لا للدين ، وللوطن لا للعقيدة ! والحرب الخفية والجلية لابد أن تدور رحاها ليلاً ونهاراً لتطحن كل ما يعترض هذه الغاية الفاجرة .

وعلى القادة العرب أن يتأسَّوْا بالقائد التركي المرتد « **مصطفى كمال** » فإما بلغوا مرادهم طفرة ، أو على مهل ! المهم أن يصلوا يوماً إلىٰ جعل الأمة العربية علمانية مبتورة العلاقة برسالتها وتراثها . .

وقد اصطدمت حركة الارتداد تلك بمقاومة صلبة ، ولكن الغزاة وعملاءهم يركبون الصعب والذلول لإدراك مأربهم ، وكلما ظنوا أنهم قاربوا النصر هبت عليهم موجة من أمواج الايمان المكافح فلَّت حدَّهم وخيبت أملهم ، ويستأنف المرتدون نشاطهم ، ويعاودون الكرَّة ، **ويأبىٰ سواد الأمة الاستسلام ويستميت في حماية ما بقي له من إيمان** ، ولا يزال العراك ناشباً بين الفريقين ، ولا يزال أمل المؤمنين قوياً أن يخرجوا من هذه الساحة الدامية والإسلام بخير !!

أمـــــــــــور مهمـــــــــــة ..

ونـنبه إلى أمور . . أن الحكم بغير ما أنزل الله له أنصار كُثْر ، تمدهم من الخارج الشيوعية والصليبية والصهيونية على سواء .

وأن بثَّ جراثيم العفن الخلقي ، وإدمان الشهوات يسير جنباً إلى جنب مع تعويق الانتاج المحلي وتعطيل الأيدى المتوضئة . .

وأن السلطات القائمة تعرف المكانة الشعبية للإسلام ، ومن هنا فهي تؤ وي إلى كنفها صنفاً من علماء الدين يطلق عليهم : العلماء الدواجن ، لا شوكة لهم ولا غيرة ، يمثلون الدين على نحوٍ ما ، وينفون عن أعدائه شبهة الارتداد ، ولوكانوا يعملون بيقين لحساب الشيوعية والصهيونية والاستعمار . . .

أما الشيء الذي نقف بإزائه برهة ، فهو الجبهة العاملة للاسلام . بإخلاص ، فكثيراً ما تكون الأخطاء هنا قاتلة ، بل كثيراً ما تكون الثغرات هنا هي المنافذ التي يتسرب منها الخطر ، أو يتسلل منها الخصوم لإلحاق أفدح الأذى بالاسلام وأمته . . !

أحياناً أوازن بين صورة الاسلام الحقيقي ، وبين صورة الإسلام في ذهن أحد الدعاة ، فأجد الفارق بين الصورتين كالفارق بين سيارة لعبة أطفال وبين سيارة تنهب الأرض نهباً !

إن الضحالة العلمية عند مشتغل بالدعوة جريمة ! وليس كل مسلم مطالباً أن يكون عالماً راسخاً ، ولكن القيادة لها خصائص عالية . .

وفي عصرنا هذا استبحرت المعارف ، وتسلحت المذاهب برجال عباقرة ،

فإذا بقي قادة الجبهة الإسلامية عندنا على مستواهم الحالي ، فالمستقبل مظلم . .

ومعروف أن الدعاة الذين يمكن أن يفيدوا دينهم وأمتهم يلقون العنت ، ليكن !! فهذه سنة الله في الأولين والآخرين ، لا يجوز الفزع منها ، ولا التعليل بها في تقصير . .

ليـس من الدعـــــــــــــاة . .

وعلى أية حال فلا أستطيع بتة أن أعدّ في الدعاة رجلاً قليل البضاعة في التاريخ السياسي للإسلام ، أو التاريخ التشريعي له ، أو رجلاً لا يدري إلا النزر اليسير عن خصائص الفكر الإسلامي ، لأن وعيه غامض في القرآن الكريم ، كل ما يعرفه بضعة أحاديث إن صح سندها ، فهو لا يدري كيف يضعها مواضعها .

لا نستطيع أن ننظم في سلك الدعاة امرءاً لا يعرف عن العالم المعاصر شيئاً ، ولا عن الفلسفات التي تحكمه ، ولا أسرار رجحان الإسلام عليها . .

لا نستطيع أن نعدَّ من الدعاة امرءاً يريد نشر الاسلام في الغرب بنقل تقاليد وعادات يظن أنها من الإسلام ، وهي في حقيقتها ليست من الإسلام ، وقد تكون منفرة للقوم هناك . . كأن يسلب المرأة حقوقها التي أقرها الإسلام تحت وطأة عادات اجتماعية في بيئة معينة . .

ولا يعني ذلك أبداً إقرار المجون الفاضح والاختلاط الفاحش الشائع هناك . . فالإسلام شيء غير العادات المستقرة هنا أو هنا ، وله أحكامه التي يقررها العلماء لا الدهماء . .

إن هناك علماء دين لا يعرفون شيئاً عن حقوق الإنسان ، لا يعرفون شيئاً عن الدساتير التي أرست العلاقات بين الدولة والشعب ، لا يعرفون شيئاً عن الطور الذي بلغته العلاقات بين الدول .. والأنكى أنهم لا يعرفون وضع مجموعة الدول الاسلامية بين غيرها من المجموعات ، ولا يحسون ما يبيت لدينهم بليل ، ولا ما يرسم لتحديد مستقبلهم الثقافي والاجتماعي .

ويتبع هذا القصور العقلي أن القضايا التي تستولي على الاهتمام ، وتقع عليها المفاصلة تكون من النوع الهامشيّ أو الخيالي أو التاريخي البالي ..

عـــــــرب العصـــــــــر الحـــــديث ..

ولنعد إلى عرب العصر الحديث الذين يريدون الاعتزاز بغير الإسلام ، والذين يتعمدون إهمال شرائعه ، وإسقاط شعائره .. المعروف أنه إذا عزّ الإسلام عزّ العرب ، وإذا ساد سادت لغته وآدابه ، بيد أن المستغرب في مسلك القوم أنهم يتعصبون للعروبة ، ويتنكرون للسيد الأوحد الأمجد الذي اصطفاه الله منها ، وَتَوَّج به المستقدمين والمستأخرين ، وبعثه بختام الأديان وأنفس الرسالات ، هل يحقد على محمد ﷺ عربي ، وهو شرف العرب وفخرها ؟!

ثم كيف يكون عربياً من يهمل لغة العرب ، ويؤثر عليها اللغات الأخرى ؟

الحق يقال : إن النزعة القومية هنا ستار مفضوح لحركات تخريبية يراد بها ضرب الإسلام وحده ونسف قواعده في بلاده ، **ويمكن القول بأن هذه الحركة المشؤومة هي حملة صليبية ناجحة في العصر الحديث !!**

لقد تعصب العرب قديماً لأنفسهم ، فماذا أفادوا من هذه العصبية الجنسية ؟ خسروا أنفسهم ورسالتهم ، ونتج عن هذه العصبية العمياء أن **العرب اختفوا من معارك الإسلام الحاسمة عسكرية كانت أو سياسية أو ثقافية ، فهل** هذا ما يقصدون ؟ . .

وإذا كنا مطالبين الآن بالتعصب للعروبة ، وبعث نهضة على أساسها ، **فهل سنأخذ القدوة من عاد وثمود ؟ أم من امرىء القيس وطرفة بن العبد ؟** وهل سيكون جحدنا للإسلام ونبيه ﷺ كلاً أم جزءاً ؟ ومن سيكون مستشارنا في الاختيار ، أيكون روسيًّا أم اميركيا ؟؟

أرجو أن تنتهي هذه المأساة أو هذه المهزلة ! وأرى أن تتكون لجنة من جميع الأجناس التي اعتنقت الإسلام ، من عرب وأتراك وهنود وفرس وأندونيسيين وزنوج وغيرهم ، لتذويب الفوارق العنصرية في كيان إسلاميٍّ مشترك ، وسحق كل الثغرات الجاهلية ، وجعل اللغة العربية اللغة التالية لكل لغة وطنية ، وجعلها اللغة الرسمية العامة في كل ملتقى إسلامي ، كما أنها لسان الوحي ولغة التعبُّد لله رب العالمين .

ويمكن تجديد ما وهى من أواصر قديمة ، كما يمكن التعاون في مؤتمرات وأسواق مشتركة لمواجهة مستقبل تكتنفه الضغائن والمتاعب . . .

وليعلم العرب أنهم قبل غيرهم مأكولون يوم يتركون الإسلام ويخونون الله ورسوله . .



الفصل الرابع

محنة اللغة العربية والأخطار التي تكتنفها

من عهد بعيد والعرب لا يقومون بواجبهم تجاه لغة الوحي ولا عذر لهم في ذلك عند الله ولا بين الناس . .

إن المصريين والشاميين وغيرهم ، تركوا لغاتهم الأولىٰ وآثروا لغة القرآن ، أي : ان حبهم للإسلام هو الذي عرَّبهم ، فهجروا ديناً إلى دين ، وتركوا لغة إلى أخرى . .

وإذا كان للعرب فضل فهو أنهم حملوا الإسلام إلى العالم ، وبلَّغوه بشجاعة وبسالة فائقتين ، لم تُعرفا عن أتباع نبيٍّ من قبل ، إن أصحاب عيسى

عليه السلام عجزوا عن مثل هذا الصنيع ، ومكّنوا رجلاً يهودياً ، كبولس ، أن يحوّل الرسالة عن غايتها ، وأن يزحزح دين عيسى عليه السلام عن قواعده الأولى . .

ويجب أن نثني على العرب لأنهم صانوا بدقة ، وبلغوا بأمانة ، وقدموا أرواحهم فدىً لما يعتقدون . .

لكن العرب بعد ذلك تركوا الدين واللغة ودائع لدىٰ غيرهم ، فلم ينهضوا بنشر اللغة ، ولم يبذلوا جهداً يذكر في شرح قواعدها وآدابها للآخرين ! واضطر الأعاجم إلى النهوض بهذا العبء ، فكانوا علماء النحو والصرف والبلاغة بفنونها الثلاثة : المعاني ، والبيان ، والبديع . .

وإذا كان المسلمون من غرب آسيا وشمال افريقية قد استعربوا بالاسلام ، فإن تعميم ذلك على سكان الأرض متعذر ، وكان يجب على الجنس العربي أن يبذل جهوداً شاقة في توسيع دائرة العربية ، حتى تجتذب الهنود والأتراك والفرس والأندونيسيين . . الخ

ونحن نسجل بحزن أنه لم يبذل جهد يذكر في تعريب الأتراك ، وهم الجنس الحاكم طيلة ستة قرون ، وأن الإسلام دخل البلقان ، ولم تدخله اللغة ، فخرج تاركاً آثاراً مهتزة ؛ وأن جنوب آسيا وشرقها كذلك . . .

والعرب هم سُبع المسلمين فقط ، وواجبهم تعليم لغتهم لإخوان العقيدة بل واجبهم نشر لغتهم في أقطار الأرض كلها ، لأن رسالتهم عالمية ، وفرض عليهم أن يمهِّدوا الطريق إليها . .

قد تقول : إن العرب بدعوتهم إلىٰ الاسلام يدعون ضمناً إلى تعلم العربية ، لغة الوحي ، وأسلوب المناجاة بين الله وخلقه في الصلوات المكتوبات . .

ونقول : إن أصحاب الرسالات لا يخدمون أنفسهم بالدلالات الضمنية ،

واللغة العربية لغة متشعبة القواعد ، وتعليمها يحتاج إلى معاناة ومشقة ، وعلينا أن نخترع طرقاً لتيسير قواعدها وضبط أصواتها ، ونحن نرى الإنكليز في عصرنا يفعلون العجب في تعميم لغتهم ، ويبتكرون الحيل الطريفة لتحبيبها إلى النفوس حتى أصبحت الإنجليزية لغة العالم ، ولغة العلم معاً . .

أما نحن فلا نفعل شيئاً من ذلك حتىٰ غُزينا في عقر دارنا ، وأخذت اللغات الأخرى تغير علينا ، وتكتسح لغتنا في مواطنها الأولىٰ .

علاقــــــــــــة مـــــــــــــزورة ..

والمضحك أن دعاة العروبة لا يحسنون لغتهم ، مما أكد عندنا أن دعاة هذه القومية العربية سماسرة غزو أجنبي ، وأن علاقتهم بالعربية ومآثرها ومواريثها علاقة مزوَّرة ، وأنهم قنطرة صُنِعَتْ عمداً لتعبرُ عليها أديان وفلسفات وقوميات أخرى ! !

أقترح تكوين لجنة تختار ألف كلمة عربية مثلاً مما يحتاج المرء العادي إليه في البيت والسوق والشارع والوظيفة والعبادة . . إلخ ، وأن يكون أساس الانتقاء لهذه الكلمات ترك المترادفات ـ وهي في لغتنا كثيرة ـ وإيثار الثلاثي على الرباعي ما أمكن ، وأخذ الكلمات المنضبطة تحت قاعدة في تصاريف الأفعال وفي جموع التكسير ـ وهي في لغتنا معقدة ـ وتفضيل ما استعمل في الكتاب والسنة ، وتفضيل ما سهل على اللسان من المدارس النحوية المختلفة ، ويمكن الاستعانة بالصور وآلات ضبط النطق . .

ويبدأ المعنيون بتعليم المسلمين الأعاجم ، وإن كان التخطيط يبدأ بمشروع

شامل لنشر العربية بين أبنائها (!) وبين المسلمين الذين لا يعرفونها . . وبين الأجانب عامة بعد ذلك . .

إن هذا اقتراح ساذج ، وما أريد إلا بدء العمل فوراً ، فلغتنا في خطر ! وعند المتخصصين طرائق شتىٰ ، والمهم هو أن نغار على لغتنا وتراثنا ، وأن يقف الزحف المروِّع الذي يكاد يجتاحنا من كل ناحية . .

إن ناساً من قادة هذه الفترة العجفاء من تاريخنا ، يتناولون الساسة القدامى بالهزء ! وقد سمعت بعضهم يضنُّ على « سعد زغلول » بلقب الزعامة ، وأنا لا صلة لي بسعد أو بغيره ، ولكنني أعلم أن سعداً لما تولّى وزارة المعارف في مصر كان التعليم في المراحل الأولى باللغة الإنكليزية ، كان كتاب الحساب المقرر على الصف الابتدائي تأليف « مستر تويدي »! وكذلك سائر العلوم ، فألغى سعد هذا كله ، وأمر أن تدرس المقررات كلها باللغة العربية وأن توضع مؤلفات جديدة باللغة القومية !!

وبذلك المسلك الناضج حفظ على مصر عروبتها . .

لقد كانت في سعد بقية من ثقافته الأزهرية الإسلامية ، جعلته يفعل ما يفعل ! قال لي أحد الناس : إن سعداً اقترف كذا . . قلت له :

إن كان لابد من اختيار أحد الشرين فلنرتكب أخف الضررين !! إن سعداً ـ غفر الله له ـ أحسن إلى جيلنا كله بجعلنا عرباً . .

والمطلوب الآن : هل يستطيع رجل أن يفعل فعل سعد ، فيُعَرِّب التعليم الجامعيَّ ، إنه انكليزي في أقطار ، فرنسي في أقطار ، روسي في أقطار ، ولا توجد صيدلة عربية ولا طب عربي !! إلخ . .

هل من زعيم شجاع غيور يبدأ هذا العمل ، ويتمه في عشر سنين ؟؟

إهـــانة العربيـــــة ..

إن اللغة العربية الآن تهان وتنتقص من عدة جهات . .

١ ـ الروايات التمثيلية التي تحكي عبارات السوقة والطبقات الجاهلة ، فتحيي ألفاظاً كان يجب أن تموت مكانها ، وتؤذي المسامع باللهجات العامية المنكورة !

٢ ـ الزعماء الذين لا يحسنون الفصحىٰ ويحلو لهم أن يتحدثوا إلى الجمهور ساعات طويلة ، فيجيء حديثهم معزولاً عن العقل والروية ، وتختلط فيه العربية والعامية ، وهم مولعون بخفض المرفوع وجرّ المنصوب ، ولانعرف لغة في أرجاء الأرض يتحدث رؤساؤها بهذه الطريقة . . !!

٣ ـ الأشخاص الذين يقلدون المنتصر ، والذين ذابت شخصياتهم ذوباناً تاماً ، فيرون من الرقيِّ أن يكون حديثهم بأي لغة إلا العربية ، وهذا نوع من الناس : **أفكارهم في جلودهم ـ كما قيل ـ أعني أنهم يجلدون بالسياط كي يفهموا ، فليست لهم عقول يقادون منها . . !!**

٤ ـ والطَّامة الكبرىٰ في رجال المجامع الذين يرون العربية تنهار أمام ألفاظ الحضارة المحدثة ، ومصطلحات العلوم الكثيرة ، ومع ذلك فهم لا يحركون ساكناً ، مع أن العربية في خطر حقيقي !!

كتب **الدكتور محمد عاطف كشك** مقالاً عن تعريب التعليم الجامعي ناقش فيه الأوهام التي يرددها بعضهم لإبقاء العلوم تدرَّس باللغات الأجنبية ، والمتناقضات التي يقعون فيها وهم يحاولون إبعاد اللغة العربية عن ميدانها

العتيد . . ونحن ننقل من مقالة الجيّد المخلص ردَّه الهادىء على شبهات القوم ، وبيان ما فيها من فراغ . . .

تناقضـــــــــــــات .. ومغالطـــات

عند تأمل الأبعاد المختلفة لقضية تعريب التعليم الجامعي في وضعها الراهن يمكن اكتشاف عدد من التناقضات والمغالطات التي تحتاج الى وقفة لفحصها ونقدها . ويمكن مناقشة أهم هذه التناقضات والمغالطات في النقاط التالية :

(١) يمكن تقسيم الدول العربية فيما يتعلق باستعمال اللغة العربية في التعليم والحياة الى مجموعتين : مجموعة الدول التي استطاعت أن تحافظ على استعمال اللغة العربية في معظم مراحل التعليم وفي الحياة والتعاملات الرسمية ، ثم مجموعة الدول التي استطاع المستعمر أن يفرض عليها لغته لدرجة أنها وجدت نفسها بعد الاستقلال ومعظم أفرادها لا يستطيعون أن يتكلموا أو يفهموا لغتهم القومية كما حدث في الجزائر وتونس . ومن الغريب أن المجموعة الأخيرة تقدر ضرورة بذل جهود مضنية ومخلصة لاستعادة مكانة اللغة العربية ، في حين ان مجموعة الدول التي حافظت على اللغة العربية طوال فترات الاحتلال ، هي التي تتصاعد فيها الآراء التي تشكك في صلاحية اللغة العربية لاحتواء العلوم الحديثة ، وقدرتها على التعبير ، ومتابعة التغيرات العالمية السريعة ، وخاصة في مجال العلم والتكنولوجيا .

والتفسير الوحيد الذي نستطيع أن نقدمه لهذا التناقض ، هو أن الدول التي سادت فيها لغات غير لغتها القومية قد أتيحت لها الفرصة لأن تلاحظ

أكثر الأثر الهدام لاهمال اللغة الأم ، وأن تؤمن أكثر باستحالة تحقيق الوحدة الثقافية والاستمرارية التاريخية وربط الأجيال الجديدة بواقعها ، مما أدى الى تخبط وفشل عمليات التنمية المتكاملة ، في حالة الاستمرار في تجاهل اللغة القومية ، والوقوع في مثل هذا التناقض الغريب ليس نادر الحدوث ، فهو شائع على مستوى الأفراد وعلى مستوى الدول عندما تتجاهل قيمة ما تملكه بالفعل .

(٢) مغالطة شائعة أيضا فيما يتعلق باستعمال اللغة العربية يرددها كثير من العلماء ، مؤداها أن اللغة العربية عاجزة عن استيعاب التقدم العلمي والمصطلحات العلمية والحضارية التي نشأت في لغات أخرى .

ولن نرد على هذه المغالطة أو هذا الخطأ بمحاولة ترديد ما قيل كثيراً عن خصوبة اللغة العربية وغناها وقدرتها غير المحدودة على استيعاب كل مصطلحات العلم الحديث عن طريق البحث في التراث ، أو عن طريق الاشتقاق ، أو نحت ألفاظ جديدة ، ولن نرد أيضا على هذه المغالطة بالاستشهاد بعدد غير قليل من المحاولات العملية الناجحة سواء بذلت بواسطة أفراد أو جماعات أو هيئات (مثل مجامع اللغة العربية) والتي تم فيها نقل مصطلحات العلم الحديث والحضارة المعاصرة الى اللغة العربية .

وأثبتت هذه المحاولات بالفعل ـ رغم وجود بعض نواحي النقص فيها ـ قدرة اللغة العربية ـ ربما أكثر من لغات أخرى كثيرة ـ على استيعاب كل مصطلحات الحضارة الحديثة .

كما اننا لن نرد على هذه المغالطة وهذا الخطأ بمحاولة تذكير القائلين به بما كان عليه الحال في عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ،

وازدهار العلم والفلسفة العربية عندما كانت اللغة العربية تستوعب العلوم المختلفة ، وتمتلك من الغنى والخصوبة والتجدد ما يجعلها قادرة على التعبير والتأثير ، سواء في العلوم التي نشأت في ظل الحضارة العربية أو التي نقلت إليها عن طريق الترجمة وخاصة العلوم والفلسفة الاغريقية .

كل ذلك ربما كان معروفاً تماماً للقائلين بعجز اللغة العربية ، واذن ربما يكون مفيداً أكثر أن نحاول اكتشاف الأسباب الدافعة للوقوع في هذا الخطأ أو هذه المغالطة ، وأعتقد أن الأسباب لا تخرج عن أحد الاحتمالات الآتية :

(أ) أن يكون القائلون بعجز اللغة العربية لا يفهمون لغتهم الأم فهماً جيداً ، ولا يعرفون قدرتها وامكاناتها الهائلة ، لكنه يجب أن نذكرهم دائماً بأنه مهما كان تعمقهم وتبحرهم في اللغـات الأجنبية التي يستعملونها ، فسوف يظلون عاجزين عن معرفة كل أسرارها ، لأنها رغم كل شيء ليست لغتهم الأم .

(ب) بعض الذين يحاولون باستمرار التشكيك في قدرة اللغة العربية ويصرون على استعمال لغات أجنبية ـ رغم عجزهم الفاضح أحياناً في فهم أسرارها ـ انما يحاولون اخفاء تفاهة مضمون ما يقدمونه من مادة عن طريق تغريب الشكل الذي يضعونها فيه .

(جـ) الاحتمال الثالث لتفسير هذه الظاهرة هو احتمال الكسل الذي يجعل البعض يقول : مادمنا نأخذ مضمون ومحتويات العلوم من الخارج فلماذا نتعب أنفسنا ونبدد وقتنا في محاولة نقلها إلى العربية ؟ وخطر هذا الاتجاه ـ كما سوف نرى ـ انه لا يدل فقط على الكسل ولكنه يدل أكثر على تجاهل طبيعة التقدم العلمي وارتباطه الوثيق باللغة .

(٣) المغالطة الثالثة الشائعة يقول أصحابها ان استعمال اللغة العربية يعزلنا عن العالم المتقدم ـ المنشىء للعلوم الحديثة ـ ويجعلنا غير قادرين على الاتصال بهذا العالم والتأثر به أو التأثير فيه .

وهذه مغالطة من السهل فضحها فسوف نرى كيف أن التأثير في العالم واحتلال مكان بارز فيه ، لن يكون إلا عن طريق بناء الوحدة الثقافية للأمة ، والارتباط بالجذور التاريخية لها .

كما أن القائلين بهذا الادعاء إنما يخلطون بين استعمال اللغة العربية وتعلم اللغات الأجنبية الحية ، فلا أعتقد أن أحداً يمكن أن ينكر فائدة ـ بل وضرورة ـ تعليم اللغات الأجنبية الحية بطريقة جادة وعميقة لكل الأجيال الجديدة ، لكن ذلك شيء واستعمال اللغة القومية شيء آخر ، والأمثلة أمامنا عديدة ، فمعظم النتائج الهامة للعلم متاحة في عدد محدود من اللغات الحية ، ولو أن الاتصال بالعالم المعاصر يحتم ضرورة التعليم بهذه اللغات لرأينا التعليم في معظم بلاد أوربا يتم بالانجليزية أو الفرنسية ، لكن ذلك لا يحدث في الواقع ، والمثل الواضح الذي يمكن أن أسوقه هنا هو هولندا ، فالهولنديون يعرفون أن لغتهم ليست هامة حيث لا يتكلم بها أكثر من خمسة عشر مليوناً ، ولذلك لا يوجد شاب هولندي لا يعرف بجانب اللغة الأم لغتين أو ثلاثا من اللغات الحية ، ولكن أحداً لا يناقش بالمرة في أن التعليم في جميع مراحله يجب أن يكون باللغة الهولندية ، فما بالك باللغة العربية وهي لغة أهم بكثير من اللغة الهولندية باعتبار عدد الناطقين بها ، وباعتبار تاريخها وتراثها وحتى باعتبار اعتراف العالم بها .

هذه المغالطة أدت في الواقع إلى معضلة صعبة ، ففي مثل هذا

الوضع المتردد والمهتز لا نحن حققنا الاتصال بالعالم ، ولانحن حافظنا على وحدتنا الثقافية لأننا أهملنا لغتنا القومية ولم نتعمق في تعلم اللغات الأجنبية الهامة .

ثم ان هذه المغالطة جعلتنا أيضاً نقصر في محاولات الترجمة والتعريب للمصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة باعتبار أنه لا مبرر لبذل الوقت والمال والجهد في ذلك ، في حين أن كل الدول المتقدمة والتي تعتز بلغاتها القومية تعترف بالترجمة والنقل وسائل فعالة في الاتصال والتبادل بين الحضارات واللغات المختلفة .

(٤) المغالطة الرابعة تتعلق بالادعاء القائل : إن التعليم في المرحلة الجامعية ، وخاصة في مرحلة الدراسات العليا لا يمكن أن يتم باللغة العربية وهنا تجاهل واضح لنجاح التعليم باللغة العربية في كل مراحل التعليم قبل الجامعة في معظم الدول العربية ، وخطورة هذه المغالطة

انها ترتبط مباشرة بتدهور مستويات التعليم في كثير من الجامعات ، فكثير من الأساتذة لا يجيدون اللغات الأجنبية التي يعلمون بها ، ومعظم الطلاب يجهلونها جهلاً تاماً ، وذلك يكون على حساب المادة العلمية والمستوى ، ويكون على حساب محاولات التأليف في اللغة العربية ، ومحاولات الترجمة اليها ، ونحصل في النهاية على أجيال غير قادرة على

مواصلة التعلم ورفع المستوى العلمي ، وملاحقة تطورات العلم والتكنولوجيا لأنها لا تستطيع القراءة في لغات أجنبية ، ولا تجد أو لا تؤمن بما هو متاح في اللغة .

هذا غراس الاستعمار شرقيه وغربيه في أمتنا المحروبة . . !!

في مجـــــــــــال الأدب ..

وفي الوقت الذي كان الاستعمار الثقافي يئد الفصحىٰ في مجال العلم ، كانت جهوده موصولة لقتلها في مجال الأدب ، ولكي نكشف أسلوبه في الفتك نحب أن نرجع قليلاً إلى الوراء . .

منذ خمسين سنة ، انتعشت العربية بنهضة أدبية في شعرها ونثرها ، أشبهت أو أربت على تألقها القديم في العصر العباسي الأول ! ولم يحدث في تاريخنا الأدبي أن تعاصر فيه مجموعة من العمالقة ، كما حدث ذلك خلال القرن الماضي . .

ففي ميدان النثر ظهر الرافعي ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وزكي مبارك ، وطه حسين ، وأحمد حسن الزيات ، وعلي الطنطاوي ، وشكيب أرسلان ، وآخرون تغيب أسماؤهم عني الآن

وكان الانتماء الروحي لهؤلاء ، متباينا ، فمنهم الوفيُّ للإسلام ظاهراً وباطناً ، منذ بدأ إلى أن مات !

ومنهم من استقىٰ من ينابيع أجنبية تأثر بها في كتابته حيناً من الدهر ، كالعقاد الذي تأثر بأدب السكسون ، وطه حسين الذي تأثر بأدب اللاتين ، ووقع بينهما تلاوم وجدال على هذا الانتماء وقيمته الانسانية والثقافية ، ومنهم من غلبه فكر المستشرقين ، واتجه إلى التحلل . .

على أن هؤلاء جميعاً كانت الفصحىٰ لغتهم ، وكان حسُّهم البياني رفيعاً ، وكانوا يحتقرون العامية ويترفعون عنها ، ومع أن بدايتهم كانت على هذا الخلط الذي وصفنا ، فإن أغلبهم ختم حياته بخير . .

فلم يمت العقاد إلا بعد أن ألف أروع كتبه وأخلدها في الإسلام وحقائقه

ورجاله . .

وعلى نحو مَّا كان طه حسين ، الذي بدأ ملحداً مارقاً ثم أخذ ينعطف نحو الإسلام ، وقد اعتمر وزار المسجد النبوي ، وقال لي الصديق الأستاذ محمد فتحي ، إنه كان معه على حافة القبر الطهور ، قال : وكنت أمسك ذراعه وكان بدنه ينتفض بقوة . . !!

ويبدو أن الاستعمار الثقافي حاول تجفيف الروح الدينية في ميادين الأدب ، ولكنه لم ينجح كل النجاح ، وبقيت الفصحى رفيعة الهام .

وفي ميدان الأدب الديني وجد فقهاء ودعاة ومفكرون ومفسرون لهم تدفق وبلاغة وذكاء مثل : محمد رشيد رضا ـ تلميذ الإمام محمد عبده ـ ومحمد فريد وجدي ، وجمال الدين القاسمي ، ومحمود شلتوت ، ومحمد البهي ، والفقيه الكبير محمد أبو زهرة ، والفقيه المؤرخ محمد الخضري ، ومجدد الاسلام في القرن الرابع عشر حسن البنا ، وآخرون أذهل عنهم الآن . .

كانت اللغة العربية على ألسنة هؤلاء إذا خطبوا ، وعلى أسنة أقلامهم إذا كتبوا ، تتفجر ينابيع صافية . .

ولو قُدِّر لهذه الفئة أن يطول بقاؤها لارتفعت بمستوى الجماهير ، وأعادتهم إلى حظيرة اللغة التي هبطوا دونها . .

وفي ميدان الشعر وجد أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، والزهاوي ، والصافي ، وأحمد محرم ، وعلي الجارم ، وغيرهم . . وهؤلاء ما يقلون عن المتنبي ، والمعري ، وأبي تمام ، وبشار بن برد ، بل إن هناك من النقاد ومؤرخي الأدب العربي من يرون أحمد شوقي أمير الشعراء العرب قديماً وحديثاً . .

وهؤلاء الشعراء ـ أعني المسلمين منهم ـ كانوا عواطف الإسلام الحارّة

ومشاعره النابضة ، وكان شوقي الباكي الحزين في مآتم الإسلام وهزائمه ، كما كان المغني الفرح في انتصاراته وانتفاضاته ، وكان الشعر يقود معارك الحرية ضد الاحتلال الأجنبي ، ويوقد نيران الحماس في الجماهير التي تنطلق بين الحين والحين لتدافع عن وجودها المادي والأدبيّ . .

وظاهر أن هذه النهضة الأدبية المباركة كانت تبنىٰ على المهاد الأول ، وتصل من أمجاد المسلمين ما أضاعه التفريط والغدر !

وظاهر أن محافظتها على التراث ، وتقديسها للقيم الدينية ، وولاءها العميق للغة العربية ، أن ذلك كله ثابت لا يتزحزح . . . ولكن الاستعمار الثقافي لم ييأس ، وعداوته للغة القرآن لم تفتر !

إنه يريد القضاء على الإسلام ، وأيسر السبل إلى ذلك القضاء على العربية وقواعدها وآدابها . .

وأظنه اليوم قد بلغ بعض ما يشتهي ! فقد اختفىٰ الأدب العربي الأصيل ، وإذا وجدت كتابات بالحروف العربية فإنها وعاء لمعان مبتوتة الصلة بأصولنا الروحية والفكرية . .

وإذا كان الأدب مرآة أمة ، ودقات قلبها ، فإن المتفرس في أدب هذه الأيام العجاف لا يرىٰ فيه بتة ملامح الاسلام ولا العروبة ولا أشواق أمة تكافح عن رسالتها ، وسياستها القومية . وثقافتها الذاتية . .

ما الذي يراه في صحائف هذا الأدب ؟ لا شيء إلا انعدام الأصل وانعدام الهدف ، والتسول من شتىٰ الموائد الأجنبية . . وحيرة اللقيط الذي لا أبوَّة له .

والشعر ؟ لا موضوع له ! أذكر أن المرحوم أحمد زكي أبو شادي كان يهوىٰ قول الشعر ، وأصدر من نصف قرن مجلة باسم « أبوللو » تجمع إنتاج أمثاله من

الهواة ، وكان أبو شادي « **نحالاً** » يزكي نحل العسل ، فقال أحد الظرفاء : إن أبا شادي مغرم بكل مايلسع : بتربية النحل وقرض الشعر !!

وأشهد أن شعر أبي شادي كان أنظف ألف مرة مما يسمىٰ في عصرنا هذا بالشعر المرسل . . فقد كان لكلامه نظم موسيقي ومحور يدور عليه . .

أما الأشخاص الذين يحلو لهم حمل لقب « **شاعر** » دون أي نصاب من القدرة على النظم الموزون ، والمعنىٰ الرائق فأمرهم يستثير الدهشة والغضب . . !

وأريد أن أصفهم بصدق ليعرف الناس : ماهم ؟

إذا لمحت عيني ما يسمَّى بالشعر المنثور تجاوزته على عجل ، لأني من طول ما بلوته يئست أن أجد فيه معنى جادًّا ، أو شعوراً صادقاً أو فكرة واضحة !

غير أني أحياناً أقرأ ما يترجم من الشعر الأجنبيّ لأتعرف على ألوان الحسّ التي تخامر شتىٰ الأجناس ، ولأصل الرحم الإنسانية بيننا وبين الآخرين . .

وشاء الله أن أقرأ خلال فترة قصيرة كلمات ، ولا أقول أبياتاً لشاعرين ، أحدهما : أميركي ، والآخر : اسباني ، تريثت وأنا أطالعها إذْ استبانت لي من خلال السطور حقائق بالغة الوضوح جديرة بالاحترام .

أما الشاعر الإسباني فيذكر في شعره المرسل ـ هكذا ترجم لنا ـ أن في أصله عرقاً عربياً ، ومن ثم فهو يتغنىٰ بالحضارة التي أينعت في الأندلس ثمانية قرون ، ويومىء إلى شعاعاتها التي أضاءت أوربا خلال العصور الوسطىٰ ، ويذكر في ألفاظ خاطفة كيف امّحت هذه الحضارة ، أو كيف انتحر أصحابها ! وهاكم كلمات الشاعر الإسباني (عن الحضارة العربية في اسبانيا ، للدكتور محمود على مكي) :

أنـا مثـل أولئـك القـوم الـذين عمـروا أرض أجـدادي

أنــا مــن جنس كــان قــديــمــاً صــديــقــاً لــلشــمس !!
أنا من أولئك الـذين كسبوا كـلَّ شيء وفقدوا كـل شيء . .
وروحـي هي روح الــزنــابـق الـعـربـيـة الإسـبـانـيـة . .

إن هذه الكلمات أهاجت في نفسي عاصفة ترابية ، كرياح الخريف التي تهب بغتة ، فتثير الغبار ، وتحمل الأوراق الجافة ، وتحرك معاني البلىٰ . .

نعم كانت لنا على هذه الأرض حضارة أقمناها يوم كنا حملة وحي ، وصلةً بين الأرض والسماء ، فلما خُنَّا كتابنا ، وأرخصنا رسالتنا طاردتنا نقمة رهيبة ، وفقد كل شيء ، أو كما قال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها ، وكأنهم أحـلام . . !!

والأعجب من هذا التاريخ ، أن أصحابه لا يذكرونه ، ولا يستخلصون منه عبرة !! مالي أذهب بعيداً عن موضوعي ؟ إنني أريد الكلام فيما يسمىٰ بالشعر المنثور ، وقد نقلت نموذجاً منه للشاعر الاسباني « مانويل ما تشادو » فلأذكر النموذج الآخر الذي أعجبني للشاعر الأميركي « جون هانيز » « من مقــال للأستاذ درويش مصطفى الفـــــار . . » .

كلما نظرت إلى اللبن مسكوباً على المائدة
ورأيت الأكواب ملقاة بغير عناية
تذكرت كل الأبقار التي تشقىٰ . .
وضياع « الأطنان » من الحشائش في المراعي
ومعاناة الضروع التي تمتلىء لتحلب
وأشجار الغابات التي تجتثُّ لصناعة الورق

و « ملايين » الشموع التي تحترق هباء
فعلى كل مائدة في العالم المتخم تنسكب الألبان ضائعة
ويحاول « ملايين » الأطفال الغرثى التقاطها بقطع الاسفنج دون جـــدوى . . !

هل هذه نظرة مادية ؟ هل الشاعر الأميركي يتألم للدولارات الضائعة ؟

من الظلم أن نوجه إليه هذه التهمة ، إن الرجل يمقت الإسراف ، وإراقة نعم الله على الثرىٰ

تصور اللقمة التي ترمي بها دون اكتراث ، كم سنبلة قمح بها ؟ كم بذل الفلاح من جهد حتى حصدها ؟ وكم بذل غيره من جهد حتى أوصلها إلى يدك ؟

أما كان الأولىٰ أن تصان لينتفع بها فقير بدل أن تستقر في صناديق القمامة ؟

لكن التبذير يزين لأصحابه ازدراء كل شيء ، والاستهانة بمواقعه ، ولأمر ما يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ (الاسراء : ٢٧) .

والجنس العربي أجدر الناس بمعرفة مقابح التبذير ، فإن العرب الأغنياء متخصصون في بعثرة مال الله هنا وهناك دونما اكتراث . . !

والشاعر الأميركي يقرر في كلماته حقائق لا ريب فيها ، ولست أدري هل هي في الأصل الانكليزي مضبوطة الأداء وفق موسيقى خاصة ، أم أن الشعر عند القوم مرسل ؟؟

إن الشعر العربي له موسيقاه الخاصة ، وقد أحصىٰ الرواة له ستة عشر نغماً

تتعانق مع العواطف ، وتنساب معها الأحاسيس الإنسانية انسياباً ساحراً جميلًا . .

والفرق بين الكلام العادي والقصائد المنظومة ، كالفرق بين الأصوات المعتادة ، وبين ألحان الناي وصدح الآلات الموسيقية المختلفة ، وقد نبغ شعراء كثيرون في تاريخنا الأدبي ولا يزال تراثهم موضع درس واحترام ، وترديد لما حوى من عواطف وتجارب . .

وقد غالى أبو تمام في وصف الشعر وأثره عندما قال :

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درىٰ بغاة العلا من أين تؤتىٰ المكارم !

وبيت أبي تمام أفضل من بيت العقاد الذي يقول :

والشعر من نفس الرحمان مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمان !!

هذا الكلام من هفوات العقاد ـ رحمه الله ـ المردودة عليه .

الشعـــــــر المرســـــــــل ..

وقد ظل العرب أقل من عشرين قرناً يصوغون شعرهم حسب البحور المأثورة عنهم حتى جاء هذا العصر الأنكد بما يسمَّى : الشعر المرسل ، محاكاة للشعر الأوربي كما يقولون . .

وأكرهتني الأيام على سماع هذا اللغو من بعض الاذاعات ، أو قراءته في بعض المجلات فماذا وجدت ؟ تقطُّعاً عقلياً في الفكرة المعروضة ، كأنها أضغاث أحلام ، أو خيالات سكران . . ثم يُصَبُّ هذا الهذيان في ألفاظ يختلط هزلها وجدُّها ، وقريبها وغريبها ، وتراكيب يقيدها السجع حيناً ،

وتهرب من قيوده أحياناً . . ثم يوصف المشرف على هذا المخلوط الكيماوي المشوش . . . بأنه شاعر . .

في الشعر الأجنبي ـ المرسل ـ صورة ذهنية أو عاطفية ظاهرة على النحو الذي سقنا شواهده أول هذا البحث ، أما التقليد العربيُّ له فشيء غريب حقاً ! **واسمع هذا الكلام الذي نشرته صحيفة الراية في ملحقها الأسبوعي (٥٦٧)**

وصاعداً فصاعدا . .
نأيت عن خريطة الليمون والحوانيت الخفيفة . .
حجر من النهر اصطفاني . . فارتعدت !
الثور والحمير تجري فوق أكوام الغلال !!
وحاجتي لمعطف التبرك . .
ابتداء فجر صحن بيتنا ـ السحارة العتيقة . .
آن الأوان . .
لأروح في السيجا قوي الجأش . .
لأروح تحت البواكي أملأ السيجا مرابيع النجوم . .
قوس الجنازة الذي . .
يمتد في قوس البيوت الواطئة . .
الصاغة الملثمون والحلب . . النسوة الحبالى . .
قلبي الذي يجول . . . الخ الخ . .

منْ مِن الناس في الدنيا أو في الآخرة يفهم هذا المجون ؟ كأن جامع الحروف التقط كلمات من على الأرض ، ورصَّها كيفما اتفق ! وزيادة في التهويل أو التزوير جاء الرسام فوضع حولها بعض الزخارف الغامضة ، وتحت عنوان « وشم العاشق » سمى هذا الخليط الكيماوي شعراً !!! كان صديقي

محمد مصطفى حمام رحمه الله مولعاً بتقليد هذا الشعر المرسل ، والضحك من قائليه ، فجاءني يوماً يقول : اسمع هذه القصيدة .

تحت شجرة الأبدية . .
جلس الدهر يتفلّىٰ . .
وجلست معه أرمق الأفق البعيد . .
على شاطىء مديد من الصخور اللينة . .
هناك في الجزر التي تبارز الأمواج . .
كانت حبيبتي تحيا مع الغزلان وبقر الوحش . .
أين أنت يا حبيبتي . . ؟؟

فقلت له مصححاً : أين أنت يا مصيبتي ؟ هكذا قال الشاعر ، أو كذلك يجب أن يقول ! ومع ذلك فهذا الهزل المصنوع أكثر تماسكاً من الشعر المرسل الذي انتشر في صحفنا انتشار القمامات في الطرق المهملة . .

ذلكم صنيع الاستعمار الثقافي بنا ، وبلغتنا ، وتراثنا الأدبي ، وخصائصنا الفنية !

وقد راقبت إنتاج ذوي الأسماء اللامعة في هذا الميدان المبتدع ، فوجدت السمة الغالبة على هذا اللغو المسمَّىٰ شعراً لا تتخلف أبداً . . التفكير المشوش أو اللاتفكير ، والتعبير الذي يجمع الألفاظ بالإكراه من هنا ومن هنا ويحاول وضعها في أماكنها ، وتحاول هي الفرار من هذه الأماكن . .

والسؤال الذي يتردد باستمرار لماذا أيها القوم تسمون أنفسكم شعراء إذا كنتم لا تحسنون قرض الشعر وبناء القصيد ؟ لماذا لا تحاولون أن تكونوا ناثرين بعد استكمال القدرة العقلية واللغوية ؟

ومن العجائب أن هذا العجز الأدبي يلبس ثياب البطولة ، فعندما مات صلاح عبد الصبور ، غفر الله له ، نشر الرسامون الهزليون صورة لتمثال أقيم له

وقد نقشت في قاعدته هذه العبارة « فارس الكلمة » !

أي فروسية ؟ إنها طريقة المصريين ـ أو العرب أحياناً ـ في تسمية الأعمى أبا بصير ، وتسمية الأقرع : شعراوي !! كذلك يسمىٰ العاجز عن نظم الكلم : فارس الكلمة . . !!

العربيــــــــة في خطـــــــــر ..

عندما يتشابه الأنين أقول : قد تكون العلة واحدة ! ولقد سمعت مدرساً للغة العربية في إحدىٰ دول الخليج يتألم ، وكأنه يستغيث ، فقلت : إن مثل هذا الجؤار شق مسامعي في دول الشمال الإفريقي ، وفي وادي النيل ، وفي أقطار أخرىٰ ، لابدَّ أن العلة واحدة

وأخذت أقرأ ما نشرته جريدة الاتحاد في العدد «٣١٤٠٠ » .

قال المحــــرر :

اللغة العربية من أهم الركائز التي تميز مجتمعنا عن بقية المجتمعات الاجنبية ، تلك اللغة التي تميز هوية هذا المجتمع ، وتثبت شخصيته وانتماءه . . وحين نطالب بالاهتمام بلغتنا العربية وارساء قواعدها في اذهان طلابنا ، فاننا ندعو إلى ذلك من باب الغيرة على لغة الضاد .

والذي دعاني إلىٰ الخوض في هذا الموضوع . هو شكوى تلقيتها من أحد اساتذة اللغة العربية عبر الهاتف حيث عبر عن تذمره ومعاناته ، وأبدىٰ دهشة واستغراباً من ضياع معالم هذه اللغة في مجتمع الإمارات !

ذكر لي أنه يقوم بتدريس اللغة العربية ، ويحاول جاهداً أن يرسخ ويثبت في اذهان التلاميذ مدىٰ أهمية هذه اللغة وجمالها وسهولتها وبساطتها ، وكيف أن العرب قديماً كانوا حريصين كل الحرص على معالم لغتهم ، واعتبروها أساس الحضارة .

يقول : إنه حين يخرج من المدرسة فإن معالم اللغة العربية تضيع من أمامه تماماً ، فسائق التاكسي الذي يركبه أجنبي (هندي أو باكستاني) ، وحين يصل الى البيت ويرفع سماعة التليفون ليسأل في المستشفى عن صديق له يعالج هناك ، فإن عامل البدالة « الاجنبي » يجبره على التفاهم معه بلغة غير العربية ، وحين يذهب إلى السوق ، فإن كل البائعين في السوق اجانب ، ويحتاج إلى عدد من القواميس لكي يستطيع التفاهم معهم ، وحتى الحمال الذي ينقل مشترياته من داخل السوق الى السيارة أجنبي . . ويكمل هذا المدرس « العربي » طريقه ليفاجأ أن كل شيء في هذا المجتمع بعيد كل البعد عن اللغة العربية ! فيحس في المدرسة انه هو الوحيد الذي يجاهد ويكافح من أجل ارساء أسس هذه اللغة في أذهان أبناء هذا المجتمع « العربي »

الحقيقة أنه ليس لدي أي تعليق على أقوال هذا المدرس « الغلبان » ، سوى أن أضيف أن التلاعب بلغتنا امتد الى لوائح الاعلانات في الشوارع العامة ، واسماء المحلات ، والمعارض التي تكتب بخطوط عريضة ومليئة بالاخطاء اللغوية ! والغريب أن البلديات لا تعير هذا الجانب أي اهتمام ، وتترك أصحاب المحلات « الأجانب » يكتبون ما يشاؤون بالطريقة التي يريدونها ، ويعلقون كتاباتهم بشكل استفزازي في الشوارع العامة !

هذا مثال للهوان الذي تلقاه اللغة العربية في الأسواق والشوارع . . وقد سقنا آنفاً مثالاً لما تلقاه لغتنا « **الجميلة** » من اقصاء وإزراء في ميادين العلوم ، ثم لما يلقاه أدبها من تشويه وغبن في ميادين الآداب والفنون ، ماذا بقي للغتنا من أماكن تكرّم فيها ؟

إننا نصيح محذّرين : اللغة العربية في خطر ، أدركوها قبل فوات الأوان !!

الفصل الخامس

بين الاعتدال والتطرف

مع أنني حارّ العاطفة ، جياش المشاعر ، إلا أنني أفضِّل الهدوء والتلطُّف على الشدة والتعسُّف ، وأفرض على نفسي منطق العقل ، وربما قسرتُها على حكمه وهي له كارهة ! وعقبىٰ ذلك حسنة في الدنيا والآخرة !

ولقد دار بيني وبين شاب من العاملين في الميدان الإسلامي حوار قاسٍ ، كنت فيه أطيل الاستماع ، وأقلّ التعليق ، وفي نهاية المطاف ، قلت ما عندي كلّه . .

قال : إنكم تتهموننا بالتطرُّف فهلّا شرحتم موقف الطرف الآخر منا ؟ وكشفتم عن مسلكه معنا ، أكان معتدلاً أم متطرفاً ؟

إن فلاناً فعل بنا كذا وكذا ، من سفك وهتك و . . .

قلت : إن فلاناً هذا مات من سنين طوال وأفضىٰ إلى عمله ، رحمه الله !

فصاح : لا رحمه الله ولا غفر له ، لو أن رسول الله ﷺ استغفر له ما قبل منه ! ألم تقرأ قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ في مثل هذا الشأن :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَةً فَلَنْ يَغْفِرَ الله لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالله وَرَسُولِهِ وَالله لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . . (التوبة : ٨٠) .

وحاولت الكلام . . ! ولكنه مضىٰ يهدر : ماذا تقول في رجل أذلَّ العرب ومكَّن لليهود ؟ماذا تقول في رجل ألغىٰ المحاكم الشرعية ، والوقف الإسلامي ، وحل الجماعات الإسلامية ، أو وضع نشاطها تحت الحراسة ، وقتل مئات المؤمنين في السجون أشنع قتلة ، وعذب الألوف عذاباً تشيب له النواصي ، وأذل من أعز الله ، وأعز من أذل الله ، ولم يترك الدنيا إلا بعد أن صبغ وجوه المسلمين بالسواد والخزي ؟؟ ومكن لأعداء الله تمكيناً ما رأوا مثله من ألف عام ! !

قلت له : لا تجترَّ آلام الماضي ، واشتغل بالبناء للإسلام ، وليكن ذلك أغلب على فكرك من الانتقام وطلب الثأر . . واستمعوا إلىٰ من يعرفكم بحقائق الإسلام من كبار المربين ، وجهابذة العلماء ، بدل أن تكتفوا بقراءة مجردة لبعض الكتب . .

فقال الشاب في مرارة : كبار العلماء ؟ إن أمراً صدر إلى هؤلاء الكبار باستقبال « مكاريوس » جزار الاسلام في قبرص ، فاستقبل بحفاوة في الأزهر الشريف . .

وإن أمراً آخر صدر بمنح « سوكارنو » وهو شيوعي متبذل ، معروف جيداً في أندونيسيا ، شهادة الدكتوراه في الفلسفة فاجتمع هؤلاء الكبار ومنحوه من الأزهر الشريف هذه الشهادة !

وأمراً ثالثاً صدر بوضع الحجر الأساسي لكنيسة ، فسارع وكيل الأزهر إلىٰ تلبية إشارة السادة الذين أمروه ، ولم يقع في تاريخ الفاتيكان نفسه أن كُلِّفَ رجلُ دين كاثوليكي بوضع الأسس لكنيسة تخالف مذهبه !!

وقد سكت أولئك العلماء على مظالم أفقدت الجماهير نخوتها وكرامتها وشجاعتها ، ورضوا بمحاربة مظاهر التديُّن والتقوىٰ مع أننا نواجه دولة دينية أقامت كيانها على أنقاضنا . !

قلـــــــت :

يابُنيَّ ليس كل العلماء كما تصف ، وإذا مضيت أنت وصحبك في هذه السبيل فلن تعودوا . .

قـــــادة الأمـــــــــة . .

إن الخوارج قبلكم ركبوا هذا الشطط ، فدفنوا في تراب التاريخ على عجل . .

والذين قادوا الرسالة الإسلاميـة ليسوا ولاة السـوء ، ولا المعارضين الحمقىٰ ! **إنما قاد الإسلام العلماء المربون ، والفقهاء المخلصون . . !**

هل أقول : إن اليهود أعقل منكم ؟

قــــال :

كيـــــف ؟

قلـــــت :

لما عقدوا أول مؤتمر عالمي لهم في سويسرا كي يقيموا دولتهم ، ووصلوا إلىٰ مخطط مدروس ، قال رئيسهم « هرتزل » : ستقوم « إسرائيل » بعد خمسين سنة ! وقامت بعد خمسين سنة . . !

إن الرجل لم يعمل لنفسه ولا لأولاده ، إنه يغرس لمدىً بعيد ، ربما لايذوق جناه إلا الأحفاد ! ليس مهماً أن يرىٰ هو نتاج ما فعل ، المهم أن يصل إلى غايته . .

وإنما قدر الرجل نصف قرن لأنه يريد الخلاص من مشكلات تراكمت خلال قرون طوال ، لا يمكن الخلاص منها بجرة قلم أو بصيحة حماس !!

ومن الظلم أن أحمل الجيل المعاصر أوزار الهزائم الهائلة التي لحقت بنا ، إنها حصاد خيانات اجتماعية وسياسية وقعت من زمان غير قصير ، فكيف تفكرون في إزالتها بخطط مرتجلة وجهود قاصرة ؟

إن رسولنا ﷺ يوم صَاح بعقيدة التوحيد كانت مئات الأصنام صفوفاً داخل الكعبة وحولها ، وقد ظل ثلاثاً وعشرين سنة يدعو ، تدري متىٰ هَدَمَ هذه الأصنام ؟ في السنة الحادية والعشرين من بدء الدعوة !!

إنه ما فكر حتىٰ في عمرة القضاء أن يمسَّ منها وثنا ـ أي قبل فتح مكة بسنة ـ

أما أنتم فتريدون الدعوة إلى التوحيد في الصباح ، وشنَّ حملة لتحطيم الأصنام في الأصيل ! والنتيجة التي لا محيص عنها مصارع متتابعة ، ومتاعب متلاحقة ، ونزق يحمل الإسلام مغارمه دون جدوىٰ !!

وأريد أن أؤكد للشباب أن إقامة دين شيء ، واستيلاء جماعة من الناس على الحكم شيء آخر ، فإن إقامة دين تتطلب مقادير كبيرة من اليقين والإخلاص ونقاوة الصلة بالله ، كما تتطلب خبرة رحبة بالحياة والناس والأصدقاء والخصوم ، ثم حكمة ، تؤيدها العناية العليا في الفعل والترك والسلم والحرب . . !

إن أناساً حكموا باسم الإسلام ، ففضحوا أنفسهم ، وفضحوا الإسلام معهم !!

فكم من طالب حكم يؤزه إلىٰ نشدان السلطة حب الذات ، وطلب الثناء ، وجنون العظمة !!

وكم من طالب حكم لا يدري شيئاً عن العلاقات الدولية ، والتيارات العالمية ، والمؤامرات السرية والجهرية !!

وكم من طالب حكم باسم الإسلام وهو لا يعرف مذاهب الاسلاميين في الفروع والأصول ، فلوحكم لكان وبالاً على إخوانه في المعتقد ، يفضلون عليه حكم كافر عادل !!

ولقد رأيت ناساً يتحدثون عن إقامة الدولة الإسلامية لا يعرفون إلا أن الشورى لا تلزم حاكماً ، وأن الزكاة لا تجب إلا في أربعة أنواع من الزروع والثمار ، وأن وجود هيئات معارضة حرام ، وأن الكلام في حقوق الإنسان بدعة . . الخ ، فهل يصلح هؤلاء لشيء ؟!

إنني أقوم بالعمل أحياناً ، ثم أراجع دوافعه في نفسي ، فأشعر أني لم أكن فيه مخلصاً كما ينبغي ! غلبني حب الدنيا أو الاعتداد بالنفس ، فأحسّ الألم والندم ، وأرىٰ أني ـ بهذا الخلط ـ لا أصلح لولاية الناس ، وجعل كلمة الله هي العليا . . **ذلك أن الله عندما يهلك الظلمة لا يستخلف بعدهم ظلمة مثلهم ، إنما يستخلف مسلمين عدولاً صالحين** ، قال تعالىٰ موضحاً سبيل من يؤيدهم من خلقه :

﴿ وَمَالَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ولنصْبِرَنَّ عَلىَ مَا آذَيْتُمُونَا . وَعَلى الله فَلْيَتَوَكَّل الْمُتَوَكِّلُونَ ، وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لِرُسُلهمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا ، فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْـدِهِمْ ، ذَلِـكَ لِمَنْ خَـافَ مَقَـامِي وَخَـافَ وَعيـد ﴾ !! (ابراهيم : ١٢ ـ ١٤) .

هناك نصاب من الكمال النفسي والعقلي لابد من تحصيله لمن يريد خدمة الدين ، وإقامة دولة باسمه ، واكتمال هذا النصاب لا يتم بغتة ، وإنما يتكون مع سياسة النَّفَس الطويل . .

ومعاذ الله أن أتهم غيْرْي بسوء النية ، ولكنني أريد تحصين نهضتنا من العلل التي لا تبلغ القصد ، ولا تحقق الهدف . .

من أســـــــباب التطــــــرف الـــــــديني . .

للتدين المنحرف أسباب نفسية ، وأخرىٰ علمية ، تظهر في أقوال المرء وأفعاله ، وتلحظ فيما يصدره من أحكام على الأشخاص والأشياء !

وتتفاوت هذه الأسباب قوة وضعفاً ، وقلة وكثرة ، ولكنها على أية حال ذات أثر عميق في تحديد المواقف والاتجاهات . . !

والمفروض في العبادات التي شرعها الله للناس أن تزكي السرائر ، وتقيها العلل الباطنة والظاهرة ، وتعصم السلوك الإنساني عن العوج والاسفاف ، والجور والاعتساف .

وكان هذا يتم حتماً لو أن العابدين تجاوزوا صور الطاعات إلىٰ حقائقها ! وسجدت ضمائرهم وبصائرهم لله عندما تسجد جوارحهم ، وَتَحَرَّكَ أَنْفَسُ ما في كيانهم ـ وهو القلب واللب ـ عندما تتحرك ألسنتهم . .

أما إذا وقفت العبادات عند القشور الظاهرة ، والسطوح المزوَّرة ، فإنها لا ترفع خسيسة ولا تشفي سقاماً .

وقد كتبت يوماً كلمة عن « الحطيئة عندما يشتغل بالدعوة » وتساءلت :

ماذا تنتظر من رجل طبيعته شرسة إلا الوعظ بقوارص الكلم وسيء العبارات ؟

إن طبائع بعض الناس تحوِّل الدين عن وجهته إلىٰ وجهتها هي ، فبدل أن تهدي تصدُّ ! وبدل أن تسدي تسلب !

وقد نبه القرآن الكريم إلى خطورة نفر من الأحبار والرهبان ، جعلوا الدين كهانة تفسد بها الفطرة ، وتصطاد بها المنفعة .

﴿ إِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ . . (التوبة : ٣٤) .

وهذا النوع من الناس آفة الأديان كلها ، وفيه يقول الشاعر :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها . .
فباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل في البيع أثمانها !!

والآفات النفسية تبدأ مع الطفولة ، بل قد تنحدر مع خصائص الوراثة ، وإذا لم تذهب بها التربية الراشدة ، نمت مع المرء شاباً ، وبقيت في دمه شيخاً !

وانظر إلىٰ رجل كأبي سفيان ، لقد كان قائد مكة وشيخها المقدم في الجاهلية ، ولم يفت الرجال الذين يعرفونه أنه يحب الفخر ، وأن كلمة تنوِّه بشأنه قد تؤثر في حكمه . .

واقترح العباس رضي الله عنه على رسول الله ﷺ أن يجعل له شيئاً يطمئنه على مكانته بعد غلبة التوحيد علىٰ أم القرىٰ ! واستجاب النبي ﷺ لرأي عمه ، فقال :

« نعم ، من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن قعد في بيته فهو آمن » واستراح أبو سفيان أن ذكر اسمه ، ومَهَّد لتسليم مكة دون حرب !!

وقد تتستر العلة النفسية وراء الحماسة للقيم والغيرة على الحق ، وأوضح

مثل لذلك الرجل الذي علّق على تقسيم رسول الله ﷺ للغنائم ، فقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . .

إن الرسول ﷺ قد يتألف بعض الناس بشيء من حطام الدنيا ، لأن اليقين لم يستمكن من قلوبهم ، وكان على الرجل الذي لم تعجبه القسمة أن يتساءل عن سرها . . أما أن يسارع إلى اتهام أشرف الخلق فهذا مرض باطن !

وقد نبه النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلىٰ أن هذا الصنف يطيل الصلاة والقراءة ، ولكن عبادته لا تزكي سريرته ، ولا تشفي علته . . ! !

وفي غزوة العسرة تساءل النبيُّ ﷺ عن كعب بن مالك ، ما أخّره ؟ فتطوع رجل باتهامه قائلاً : ألهاه النظر في بُرْدَيْه ! وهي كلمة محقورة تنبيء عن الحقد ! فكعب أحد الثلاثـــة الذين خُلِّفُوا ، وقد عفا الله عنهم ، وتاب عليهم .

وفي أثناء أزمة كعب جاءته رسالة من ملك الروم تستحثه على ترك المدينة ، واللحاق معززاً بحاشية الملك ، فعدَّ ذلك محنة ، وأحرق الرسالة ! وارتقب الفضل الأعلى حتى جاءه ـ وهو له أهل ـ بيد أن بعض الناس ينظر إلى غيره بعين المقت التي تبدي المساويء وتخفي المحامد ، وينتهز أول فرصة ليشبع ضغنه . .

وجاء وفد إلى رسول الله ﷺ ، فيهم رجل ثرثارة دعيٌّ متشدِّق ! كلما قال رسول الله كلاماً ، طوعت له نفسه أن يقول كلاماً أفصح يحاول أن يسامي به رسول الله ﷺ . . ! !

وكان التعليق الذي باء به أن هذا ومثله يلوون ألسنتهم بالكلام كما تلوي البقر ألسنتها بالحشائش ، لهم النار يوم القيامة . . ! !

وكم رأينا من سَبَّاقٍ للكلام في الدين لا حصيلة له إلا اللغو والهباء ، فالوعظ

لا يبلغ هدفه مهما كان بليغاً إذا قارنته نية مغشوشة . .

سمع الحسن البصري ناصحاً قويّ البيان ، لكنه لم يتأثر به ، فقال له : **يا هذا ، إن بقلبي شيئا أو بقلبك . . !**

والآفات النفسية تشيع بين ناس كثيرين ، فيهم المتدين وغير المتدين ، وعلماء التربية يرون هذه العلل أخطر من الرذائل المادية .

ومن المقرر أن معاصي القلوب أخطر من معاصي الجوارح ! فالكبر شر من السكْر ، وإن كان الشارع أعد عقوبة عاجلة للسكارىٰ ، إلا أنه أرجأ المستكبرين ليوم تطؤهم فيه الأقدام . .

والسر في ذلك أن السكران يتناول ما يضره وحده غالباً ، فهو بالخمر يفري كبده ويحقر عقله ، أما المتكبر فهو يجتاح حقوقاً ، ويظلم مستضعفين ، ولا تقف دائرة عدوانه عند حدّ . .

ولا تحسبن الكبر صعر الخدّ وتثاقل الخطو ! فهذه مظاهره الطفولية ! الكبر بطر الحق وغمط الناس ، وانتهاج مسلك يفرض شهوة فرد على جماهير غفيرة .

وتدبر سياسة هؤلاء المرضىٰ العتاة ، وهم يقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً .

يقول موسىٰ لفرعون :

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الأعراف : ١٠٥) .

ويكون جواب الطاغية وملئه : ﴿ إِنَّ هَذَا لَساحِرٌ عليمٌ يرُيِدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرضِكُمْ ﴾ (الأعراف : ١٠٨ ـ ١٠٩) .

رجل يريد الفرار بقومه من العذاب فيتهم بأنه يريد إخراج المواطنين من أرضهم . .

فإذا عرف نفر من الأتباع الحق وآمنوا به ، قيل لهم : ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ (الأعراف : ١٢٣) .

سبحان الله ! لماذا ينتظر إذنك ؟

قديماً وحديثاً وجد أولئك المنحرفون من حملة الأسماء الطنانة ، فكانوا بلاء على أممهم ، ودفعت الشعوب آلافاً مؤلفة من القتلىٰ ، ثمناً للمجد الشخصي الذي يزعمه رجل يقول : أنا الدولة . . ! أو أنا وحدي . . !

والاستبداد السياسي هو البيئة الخصبة لإنبات هؤلاء الفراعين ، ويؤسفنا القول : إنه في الشرق أكثر منه في الغرب ، وهو السَّدُّ الأعظم أمام ارتقاء أمم شتىٰ والسر في انتشار رذائل الملق والصغار في جنباتها . .

وعندما أبحث عن جراثيم الانحراف بين المتدينين أجد هذه اللون من الفرعنة وراء جملة من المسالك التي نشجبها ، ونضيق بأهلها ، فبعض الجماعات نبتت أفكارها في السجون ، ونمت أشواكها وراء القضبان ، يوم استطاع رجل فرد أن يأمر باعتقال ثمانية عشر ألفاً في عشية واحدة ، وأن يدخل الكآبة والذل على ثمانية عشر ألف بيت من المسلمين ! !

هل أدافع بهذا القول عن التطرف ؟ لا ، فأي عالم مسلم يأبىٰ العوج الفكري ، والانحرافات النفسية !

إن هذا الشباب مختل المزاج ، فصاحب الرسالة ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وهؤلاء الشبان ما خيروا بين أمرين إلا اختاروا أصعبهما .

والإسلام يقدم الدليل ، ويؤخر العنف ، فما يلجأ إليه إلا كارهاً ، أما أولئك الشبان فقد نظروا إلىٰ الأسلوب الذي عوملوا به ، واستبيحت به دماؤهم وأعراضهم فلم يروا أمامهم إلا السلاح ! !

ويوجد بين المتدينين قوم أصحاب فقر مدقع في ثقافتهم الإسلامية ، وإذا كان لهم زاد علمي فمن أوراق شاحبة بعيدة عن الفكر الإسلامي الصحيح

والأقوال المرجوحة لفقهائه !

وهم يؤثرون الحديث الضعيف على الصحيح ، أو يفهمون الخبر الصحيح على غير وجهه ، وإذا كانت المدارس الفكرية في تراثنا كثيرة ، فهم مع ظاهر النص ضد مدرسة الرأي ، وهم مع الشواذ ضد الأئمة الأربعة ، وهم مع الجمود ضد التطور ، وقد سمعت بعضهم يحارب كروية الأرض ودورانها ، فلم تهدأ حربه حتىٰ روي له أن ابن القيم يقول باستدارة الأرض ! ومازال البحث جارياً عن رواية أخرى تقول :

إن الأرض تدور !! كي يسكت ويستكين . . !!

هل بين أولئك القوم وبين **الخوارج القدامىٰ** قرابة روحية وفكرية ؟ ربما ، بيد أن اتهام الخوارج بالافتئات على الأمة يمكن أن يستمع من خليفة راشد أعني من حاكم وليد شورى صحيحة ، له مكانته الخلقية النزيهة . . !!

أما أن يتوجه بالتهمة حاكم مستبد متسلط على رقاب العباد مثلاً فإن الرد معروف ، سيقال له : **وما مكانتك أنت من الأمة ومصالحها وقيمها ؟**

إن الجو الحرّ هو المكان الوحيد الذي يموت فيه التطرف ، ويتوارىٰ أهله على بطء أو على عجل ، المهم أنهم لا يبقون ولا يستقرون !

على أن الفساد السياسي لا يسيغ الانحراف العقائدي ، ولا العوج الفقهي ، وليس الدين ستارة لتغطية العيوب ، وإنما هو طهارة منها ، وحصانة ضدها ، وفي تجاربي ما يجعلني أشمئز من التدين المغشوش ، وأصيح دائماً أحذِّر عقباه . .

إن المنحرفين يسترون ـ بركعات ينقرونها ـ فتوقاً هائلة في بنائهم الخلقي وصلاحيتهم النفسية ، وهم لا يظنون بالناس إلا الشر ، ويتربصون بهم العقاب لا المتاب ، وهم يسمعون أن شُعَب الإيمان سبعون شعبة ، بيد أنهم لا يعرفون

فيها رأساً من ذنب ، ولا فريضة من نافلة ، والتطبيق الذي يعرفون هو وحده الذي يقرون .

افـــــراط ... وتفـــــــريط ..

والخلاف الفقهي لا يوهي بين المؤمنين أُخوّة ، ولا يحدث وقيعة ! وهؤلاء يجعلون من الحبة قبة ، ومن الخلاف الفرعي أزمة .

والخلاف إذا نشب يكون لأسباب علمية وجيهة ، وهؤلاء تكمن وراء خلافاتهم علل تستحق الكشف !

كتب أحدهم ردًّا عليّ جاء فيه أن الدعوة كانت تسبق القتال في صدر الإسلام ، ثم نسخ ذلك وأمسىٰ القتال يقع دون حاجة إلى دعوة تسبقه ! وساق حديثاً لم يحسن فهمه ! وبدت لي خلال السطور المكتوبة صورة المؤلف المتحمس ، **إنها صورة قاطع طريق يشنُّ الغارات على الناس باسم الدين . . !!**

ولم يكتف المسكين بتدوين هرائه حتى ضمَّ إليه سعاية إلىٰ أولي الأمر بأني أسأت إلى **الملك عبد العزيز رحمه الله** (!) هل ذلك مسلك الأتقياء الذين يخدمون التراث النبويّ ؟

إن التدين يوم يفقد طيبة القلب ، ودماثة الأخلاق ، ومحبة الخلائق يكون لعنة على البلاد والعباد . . والغريب أن التطرُّف لا يقع في مزيد من الخدمات الاجتماعية ، ولافي مزيد من مظاهر الإيثار والفضل ، إنه يقع في الحرص البالغ على الأمور الخلافية كالتنطع في مكان وضع اليدين أو طريقة وضع الرجلين خلال الصلاة !

والاهتمام الهائل هنا تقابله قلة اكتراث ببناء دولة الإسلام الغاربة ، والاقبال على تجميع العناصر التي لابد منها لإقامة حضارتنا واستعادة كياننا . .

والمجال المستحب للغالين في دينهم ينفسح عندما ينظرون في ذنوب الناس ، إنهم يسارعون إلى الحكم بالفسق أو الكفر وكأن المرء عندهم مذنب حتي تثبت براءته ، على عكس القاعدة الإسلامية . .

ومنذ أيام ثار جدل حول تارك الصلاة كسلاً ، فلم يذكر أحد في شأنه إلا أنه كافر ، مستوجب للقتل ، مخلد في النار !

قلـــــت :

إن تارك الصلاة كسلاً مجرم حقاً ، ولكن الحكم الذي ذكرتموه هو في تاركها جحداً ، وإنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة خروج من الدين ، أما الكسول فهو مقر بأصل التشريع !

قالـــــوا :

يقتل حتماً .

قلـــــت :

لماذا تنسون حديث أصحاب السنن في أن الرجل لاعهد له عند الله ـ بتكاسله ـ إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه !

ودخول هذه الجريمة فيما دون الشرك ، أعني إمكان العفو الآلهي عنها ، هو رأي جمهور المسلمين ، ومذهب الأحناف ألا يقتل الكسول . .

وعلينا بالتلطف والنصح الحسن ، أن نقوده إلى المسجد لا إلى المشنقة . .

بيد أن المتطرفين يأبون إلا القول بالقتل ، وأن هذا وحده هو الاسلام ! !

ومجال آخر هو قضايا المرأة ، إن حبسها وتجهيلها ، واتهامها هو محور النظر في شؤونها العبادية والعادية جميعاً ، ويجب ليُّ النصوص والآثار التي تربطها بالمسجد ، وبالأمر والنهي ، والتعليم ، وإذا خرجت من البيت لضرورة قاهرة فلا ينبغي أن يُرىٰ لها ظفر ، هي عورة كلها ، لا ترى أحداً ولا يراها أحد !!

ومن هؤلاء المتطرفين ناس لهم نيَّات صالحة ، ورغبة حقة في مرضاة الله ، وعيبهم ـ إن خلوا من العلل والعقد ـ ضحالة المعرفة وقصور الفقه ، ولو اتسعت مداركهم لاستفاد الإسلام من حماسهم وتفانيهم . .

حدث في إحدى القرىٰ أن أرسل العمدة إلى إمام المسجد يخبره أن المهندس الزراعي قادم ، وأنه ينبغي الاجتماع بالأهالي كي يقدم لهم ارشاداً مهماً ، ويرجو العمدة إعلام المصلين بذلك حتى يتم اللقاء .

وعندما حاول الإمام الكلام في مكبر الصوت ، قال له طالب متدين : إن **النبيَّ ﷺ منع نشدان الضالة في المسجد ، وقال : إنما بنيت الصلاة لما بنيت لله ! ـ يعنى العبادة ـ ومنعه من أخذ المكبِّر ! ولما اشتد النزاع قال الطالب : لن يؤخذ المكبِّر إلا على جثتي !!**

إن قياس الارشاد الزراعي على نشدان جمل تائه لأحد البدو قياس غير صحيح ولو فرض صحيحاً ، فالأمر أهون من أن تقدم في سبيله جثة !!

ونحن مع رفضنا لهذه المسالك نرى أن الصلف اليهودي لايكسر حدَّه إلا فداء يستند إلى هذا اليقين ، وأن على المربين والقادة أن يعاملوا هذا الشباب بحكمة ، وأن يتعهدوهم بالعلماء الواعين المتجردين ، **فإن هؤلاء الشبان يكرهون اتباع السلطة ، ويزدرون علمهم إن كان لديهم علم . . .**

الفصل السادس

المتاجرة بالخلاف خيانة عظيمة

بذلت جهداً كبيراً في ردم الفجوات التي تفصل بين الشباب المسلم ، فإنه لأمر مفزع أن يشجر الخلاف بين المسلمين الآن وأعداؤ هم يُعدُّون لهم الضربة القاضية بعد ضربات سبقت ، أوهت صفوفهم وشعَّبت أهواءهم . . !

إن هناك أنواعاً من الخلاف الفقهي واللغوي لا أخشى منها أبداً ، بل أعدُّها طبيعة البشر الذهنية والنفسية !

أما الخلاف المولود على مصاطب الفراغ والثرثرة ، الشاغل لمجالس اللهو والبطالة فهو معصية لله وتوهين للأمة .

ولم يكن هذا الخلاف موجوداً عندما شغلت الأمة برسالتها ، وعبَّأت قواها كلها لتقليم أظافر القوىٰ الباغية على الإسلام ، فلما استراحت من هذه الأعباء

ـ وما كان لها أن تستريح ـ أخذت تتحدث في دينها وتتقعَّر في فهم عالَم الغيب ، بعدما أراحت نفسها من الكدح في عالم الشهادة . . !!

وكان أن ورثنا بلاء كثيراً في قضايا مُخْتَلَقَة ، وزاد الطين بلَّة أن خصومنا شنُّوا علينا غارة استئصال ونحن ماضون في هذا اللغو ، حتى خشيت أن تُجْهَضَ النهضة الإسلامية المعاصرة بغباء المولعين بإثارة هذه القضايا . . . !!

لما كنت في القاهرة جاءني من أخبرني بأن فتنة وقعت في حلوان بين المصلِّين ! **فقلت : لماذا ؟**

قـــــــال :

إن خطيب المســـجد تساءل بصوت عال : أين الله ؟ ودهش المصلون للسؤال الملقىٰ عليهم ! ثم تولّى الخطيب الإجابة قائلاً : **في الســـماء !** وذكر حديثا معروفاً في هذا . .

وغضب بعض المصلين لهذه الإجابة التي أوقعت الناس في اللجاج والجدال . .

لقد اقشـــعرَّ جلدي لهذا الحوار وتملكني غضب شديد ، وقصة الخطيب والمعترض هذه تنوقلت هنا وهناك ، وإذا اللجاج يحيا من جديد بين مُنتسبين للسلف ومنتسبين للخلف !

وقلت : قرة عين لليهود والنصارىٰ ، ومصيبة بعد أخرى للمسلمين الضياع ! ولم أجد بُدًّا من الجري هنا وهناك ، أسكب الماء على الحريق ، وأشغل الأمة بما يجب أن تشتغل به ، وأتحدث عن الخلاف القديم الجديد بما يجمع الشمل ، ويُبعد الفرقة . .

المحـــــكم والمتشـــــــــــابه ..

قلـــــــت :

في القرآن آيات محكمة وأخرىٰ متشابهة لكن ما نسبة المتشابه إلى المحكم ؟ إن المحكم هو أمُّ الوحي ، وصلب الكتاب ، وأساس للتكاليف ، ويعني هذا أن العزائم تتجه إلى المحكم تعمل به ، وتقف نشاطها عليه ، أما غيره ـ وهو محدود النطاق ـ فإن الانشغال به عوج في الفكر وزيغ في القلب ، حسبنا أن نمرّ به مرّ الكرام لا نستقصي ولا نتكلف ، فإن طول الوقوف عنا ه لا يفيد أولاً ، ثم إنه يكون على حساب المحكم ثانياً ، سنقصِّر فيه بعدما بدَّدنا الوقت في غيره . .

قال قائل :

لكن آباءنا اختلفوا بعدما فكروا ، ما نستطيع إنكار ذلك ، وفي البلاد من يتعصب للسلف الذين أقرُّوا الآيات على ظاهرها ، وفيهم من يتعصب للخلف الذين أوَّلوها والتمسوا لها معاني معقولة ، فماذا نصنع ؟

قلـــــت :

إن التعصب الأعمىٰ مرفوض ! وعند التدبُّر نجد أمراً لابد من إبرازه ، إن السلف والخلف جميعاً يسبحون بحمد ربهم ويقدسون له ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إنهم جميعاً يؤمنون بوجوده ، وأنه الحيّ القيوم ، وأنه ليس كمثله شيء ، وأن ما ينسبه إليه اليهود والنصارىٰ من تجسد ، أو تعدُّد ، أو مظاهر بشرية خطأ محض !!

وعبارات السلف والخلف تتجه كلها إلى تلك الغاية ، وقد تضطرب أساليب الأداء ! وإذا لم يكن الخلاف لفظياً فهو قريب من الخلاف اللفظي .

إن القرآن كتاب يؤسس اليقين في القلوب ، وينشر الخير في المجتمع ، ويحدِّث الناس عن الله ليعرِّفهم بعظمته ، وينشئهم على تقواه ! وقد نزل القرآن باللغة العربية ، وجرى على قواعدها وأساليبها في التصوير والتأثير ، وعندما

نتدبره على الوجه الصحيح نلزم الصراط المستقيم ، بيد أن للعقل الإنساني شطحات تكلِّفه أحياناً أن يسأل عما لا جواب له :

إذا كنت أحفظ القرآن فأين مكان المحفوظ من رأسي أو قلبي ؟ لست أدري . .

إن الذاكرة مستودع عجيب فكيف يغيب في أعماقها ما ننساه ، ويطفو على سطحها ما تبقىٰ صورته ، لست أدري ! ثم ما قيمة الحرص على هذا التساؤل إذا كان الجواب فوق الطاقة ؟

هل تدري النملة كيف ينظم الشاعر قصيدةً مًّا ؟ أو كيف يحلُّ الاستاذ معادلة جبرية ؟ إنها لا تدري ولن تدري !!

فلم يحاول امرؤ منا أن يعرف كنه الألوهية ؟ وهو لا يعرف نفسه التي بين جنبيه ؟ بل لا يعرف جنبيه كليهما . . !!

إن تحوُّل الطعام إلى خلايا حية ، ثم تحوُّل الخلايا الحية إلى أجسام ميتة تتلاشى ، ثم تتجدد ، أمر مذهل للعقل ، ومع ذلك فهو كثير كثرة هائلة في كل لحظة من ليل أو نهار عند من قال عن نفسه .

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن : ٢٩) .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾ (غافر : ٦٨) .

السلف .. والخلف ..

وعدتُ بذاكرتي إلى أيام الدراسة في الجامع الأزهر ، من خمسين سنة تقريباً ، كنا نحضر علم التوحيد ، ونستمع إلى الأستاذ وهو يعرض نماذج من الآيات المتشابهة ، لقد شحنت عقولنا بأشياء كثيرة عن قوله تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه : ٥) .

وقوله : ﴿ يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح : ١٠) .

وبعد كلام طويل قال الشيخ رحمه الله : ومذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أحكم !

قلت له :

لماذا ؟

قال :

مذهب السلف أسلم ، لأنه أبعد عن الخطأ في تقرير المعنى ، وأرجى للثواب لأنه يبتعد عن التأويل ، ويقبل التفويض كما أمرنا ، أما مذهب الخلف فهو أقدر على دحض الشبهات ، وردِّ الوساوس ، وإلزام الخصوم .

وسلمنا ـ نحن الطلاب ـ بما تعلمنا ، ومضت السنون واللجاج لا ينتهي بين الفريقين !

وتدبرت الأمر بيني وبين نفسي فرأيت أن كُلًّا من السلف والخلف لجأ إلى التأويل في بعض الآيات ، فقوله تعالى :

﴿ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد : ٤) .

ليست معية ذات وإنما هي معية علم ! وقوله سبحانه :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق : ١٦) .

أو قوله :

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة : ٨٥) .

المقصود الملائكة لا الذات العليا ، هكذا يقول السلف . .

أما تأويلات الخلف فكثيرة مثل قوله جل شأنه :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه : ٥) .

ليس الاستواء استقراراً ومماسَّةً ، وإنما هو استيلاء وقهر . . الخ .

وقد ملت إلى رأي السلف ، وظهر ذلك في كتابي « عقيدة المسلم » غير أني بعد مزيد من الاستقصاء والبحث رأيت أن التفويض مطلوب ما لم يشعر بتجسيم ، وأن التأويل مطلوب ما لم ينته بتعطيل ، وبناء على ذلك رفضت مسلك المعتزلة لأنهم ـ تأثراً بالفلسفة الإغريقية ـ أعطوا صورة مشوهة عن الألوهية ، ورفضت مسلك الغلاة من بعض الحنابلة لأنهم كادوا ينتهون إلى التجسيم . .

وعدت إلى كلام الأئمة والعلماء على امتداد العصور فرأيت بعضه يصدق بعضاً ، أو يكاد ، ورأيت الشُّقة قريبة بين المرويِّ عن السلف والخلف ، وأنه لا مكان لمعارك دامية بين هؤلاء وأولئك .

يقول أبو حامد الغزالي ـ وهو من أئمة الخلف ـ : (فإن قيل : ما معنى قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه : ٥) .

وما معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا » قلنا : الكلام على الظواهر الواردة في هذا الباب طويل ، ولكن نذكر منهجاً في هذين النصين يرشد إلى ما عداه ، وهو أنَّا نقول : الناس في هذا فريقان : عوام ، وعلماء !

والذي نراه لائقاً بعوام الخلق ألا يخاض بهم في هذه التأويلات ، بل ننزع عن عقائدهم كل ما يوجب التشبيه ، أو يدلُّ على الحدوث ، ونحقق عندهم أنه ـ سبحانه ـ موجود

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١١) .

وإذا سألوا عن معاني هذه الآيات زجروا عنها ، وقيل : ليس هذا بعُشِّكم فادرجوا . . فلكل علم رجال ، ويجابون بما أجاب به مالك بن أنس :

« الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

وهذا لأن عقول العوام لا تتسع لقبول المعقولات ، ولا الإحاطة باللغات ، ولا تحيط بتوسيعات العرب في الاستعارات !!

وأما العلماء فاللائق بهم تعرُّف ذلك وتفهمه ! ولست أقول : إن ذلك فرض عين ـ إذ لم يرد به تكليف ـ بل التكليف : تنزيهه سبحانه وتعالىٰ عن كل تشبيه بغيره) عن « الاقتصاد في الاعتقاد . . . » .

وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم ، عند الكلام على حديث الجارية ـ الذي جعله خطيب أحد المساجد موضوعاً له وأساء كل الإساءة ـ قال :

هذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيه مذهبان :

الأول :

الإيمان به من غير خوض في معناه ، مع اعتقاد أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء ، وتنزيهه عن سمات المخلوقات .

الثاني :

تأويله بما يليق ، فمن قال بهذا قال : كان المراد امتحان الجارية ، هل هي موحِّدة تقرّ بأن الخالق المدبر الفعال هو الله وحده ؟ وهو الذي إذا دعاه الداعي استقبل السماء كما إذا صلّىٰ المصلي استقبل الكعبة ، لأن السماء قبلة الداعين ، كما أن الكعبة قبلة المصلين ، أم هي من عبدة الأوثان التي بين أيديهم ، فلما قالت : في السماء ! عُلم أنها موحدة ، وليست عابدة أوثان .

وقال ـ نقلاً عن القاضي عياض ـ : لا خلاف بين المسلمين قاطبة ، فقيههم ومحدثهم ومتكلمهم ونظارهم ومقلدهم ، أن الظواهر الواردة بذكر الله في السماء مثل :

﴿ أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ (الملك : ١٦) .

ونحوها ليست على ظاهرها ، بل مُتأولة عند جميعهم .

إن الإغراق في التأويل ـ كما هو مذهب المعتزلة ـ أذهب الخشية من القلوب ، كماأوقع أصحابه في نقائض عقلية مستغربة ، إذ كيف يقال : عليم بلا علم ، وقادر بلا قدرة ؟

وهذا التفكير تقليد رديء **لأرسطو** الذي جرَّد إلٰهه من كل وصف ، وعمل حتى أصبح إلٰهاً يتأمل ذاته وحسب !

وقد كان المعتزلة أجرأ على تأويل النصوص منهم على نقد الفلاسفة ، وذلك مسلك معيب .

مخاطـــــــــر التجســـــــيم ..

وفي الجهة المقابلة نجد صنفاً آخر يدعي التفويض والسلفية ، ويتتبع الأخبار التافهة ذات الأسانيد المظلمة ، ويستقي منها العقائد (!) ويجري وراء نص هنا ونص هناك ، فيطوي المسافة بينهما ليخرج آخر الأمر بضرب من التجسيم لا يعرفه المسلمون من سلف أو خلف .

ولا تغرنك العناوين والأسماء فإن بعضهم زعم أن ابن خزيمة ، وابن الإمام أحمد ممن حطبوا في هذا الحبل ، وكونوا بما صنفوا فرقة من الرعاع أحدثت بعض الشغب في بغداد ، ثم انتهىٰ أمرها .

ورد في الكامل **لابن الأثير** أن **الخليفة العباسي الراضي بالله** أصدر مرسوماً في شأنهم جاء فيه :

. . تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ،

وهيئتكم الرذيلة على هيئته ، وتذكرون الكفَّ والأصابع والرجلين المذهبتين (!) والشعر القطط ، والصعود إلى السماء والنزول إلى الأرض ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . . الخ) .

وكان ذلك في القرن الرابع سنة ٣٢٣هـ .

وذكر ابن عساكر في كتابه « تبيين كذب المفتري على الإمام أبي الحسن الأشعري » : أن هؤلاء المجسمة أبوا إلا التصريح بأن المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل ، وأنه ينزل بذاته في صورة شاب . . الخ .

ووصفهم أئمة الشافعية الذين أبلغوا عنهم السلطان بأنهم جماعة من الأوباش الرعاع المتسمين بالحنبلية (!) وطلبوا الضرب على أيديهم !

والإمام ابن حنبل رضي الله عنه بريء من هذا النسب ، فما كان مشبهاً يوماً ولا زائغاً عن الصراط ، وسنقرأ لابن الجوزي من كتابه « صيد الخاطر » تعليقاً على مسلك هؤلاء الحمقىٰ . . قال :

عجبت من أقوام يدعون العلم ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمرُّوها كما جاءت لسلموا ، لأن من أَمَرَّ ما جاء من غير اعتراض ولا تعرُّض فما قال شيئاً ، لا له ولا عليه !

ولكن أقواماً قصرت علومهم فرأوا أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل ، ولو فهموا سعة اللغة ماظنّوا هذا ، وماهم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء ، فقالت :

إذا هبط الحجاج أرضاً سقيمة تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزَّ القناة سقاها

فلما أتمت القصيدة قال لكاتبه : اقطع لسانها ! فجاء ذلك الكاتب المغفَّل بالموسى ! فقالت له الخنساء : ويلك ، إنما قال : أجزل لها العطاء !! ثم

ذهبت إلى الحجاج ، فقالت : كاد والله يقطع مقولي .

فكذلك الظاهرية الذين لم يقفوا عند التسليم بما ورد ، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لا يلام ، وهذه طريقة السلف .

فأما من قال : الحديث يقتضي كذا ، ويحمل على كذا ، مثل أن يقول : استوى على العرش بذاته ، وينزل إلى السماء الدنيا بذاته ! فهذه زيادة فهمها قائلها من حسّه هو لا من النقل ! ! ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له : ابن عبد البر (من أكابر العلماء ، ولا تعجبنا طريقة ابن الجوزي في تناول الرجل بهذا الأسلوب) صنف كتاب « التمهيد » فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا ، فقال : هذا يدل على أنه سبحانه على العرش لأنه لولا ذلك لما كان لقوله « ينزل » معنىً ! وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل ، لأن هذا استسلف من حسّه ما يعرفه من نزول الأجسام ، فقاس صفة الحق عليه ، فأين هؤلاء واتباع الأثر ؟ لقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأولون ثم عابوا المتكلمين . .

واعلم أيها الطالب للرشاد أنه قد سبق إلينا من العقل والنقل أصلان عليهما مرُّ الأحاديث كلها .

أما النقل ، فقوله سبحانه :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .

ومن فهم هذا لم يحمل صفة له على ما يوجب الحسّ .

وأما العقل ، فإنه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات ، وَاسْتُدِلَّ على حدوثها بتغيرها ، ودخول الانفعال عليها ، فثبت له قدم الصانع .

ومضى ابن الجوزي يشرح وجهة نظره ، ويردّ على المشبِّهة ، ويتأول النصوص التي قد توهم ذلك (أليس في الحديث الصحيح أن الموت يذبح بين الجنة والنار ؟ ثم يسأل : كيف يتُصوَّر عقلاً ذبح الموت ؟ وكيف تفسِّر

الحديث ؟ الجواب أن الكلام من باب التمثيل ، والصورة المحكية هي تقريب لمعنى موت الموت وخلود أهل الجزاء فيما نالوا .

وكذلك ما صح أنه تأتي سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان ، إن الكلام لا يكون سحاباً ! وإنما المراد إتيان ثواب التلاوة .

ما الدليل الصارف لهذه النصوص عن ظواهرها ؟ إنه علمنا بأن الكلام لا يشبه الأجسام ، وأن الموت لا يذبح ذبح الأنعام !!

فإذا كنا صرفنا عن الموت والكلام مالا يليق بهما أفلا نصرف عن ذات الله سبحانه وتعالىٰ ما يجعله شبيهاً بخلقه ؟ ومعنا في ذلك أدلة العقل والنقل ؟)

ربما فُهم من هذا السياق أن ابن الجوزي من محبِّذي التأويل ودعاته ، وأنه إن لم ينتم إلى الخلف فقد انتهج نهجهم وسار على دربهم ! وهذا غير صحيح ! وسننقل له هنا جملة عنيفة على المؤوِّلين ، إن الرجل يرفض التشبيه وما يؤدي إليه ، ويريد التمشّي مع النصوص في نطاق الأصلين : النقلي والعقلي ، اللذين ذكرناهما آنفاً ، قال رحمه الله : (من أضر الأشياء على العوام : كلام المتأولين والنفاة للصفات . . فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا في الإثبات ليتقرر في نفوس العوامّ وجود الخالق ، فإن النفوس تأنس بالإثبات ، وإذا سمع العاميُّ ما يوجب النفي طرد عن قلبه ما ثبت عنده !

بيان ذلك أن الله تعالىٰ أخبر با ستوائه على العرش ، فأنست النفوس إلى إثبات الإلٓه ووجوده .

قال تعالى :

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (الرحمن : ٢٧) .

وقـــال :

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة : ٦٤)

﴿ غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ﴾ (المجادلة : ١٤)

﴿ ورضَيَ الله عَنْهُمْ ﴾ (المائدة : ١١٩)

وأخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ، وقال : « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن »

وقـــال :

« كتب التوارة بيده ، وكتب كتاباً فهو عنده فوق العرش » إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، فإذا امتلأ العَاميُّ والصبيُّ من الاثبات ، وكاد يأنس من الأوصاف بما يقود إليه الحسُّ ، قيل له : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى : ١١)

فَمُحِيَ من قلبه ما توهمه الخيال .

قال ابن الجوزي :

وأكثر الخلق لا يعرفون الإثبات إلا على ما يألفون من الحسّ ، فيقنع الشارع منهم بذلك إلى أن يفهموا التنزيه ، فأما إذا ابتدأنا بالعاميّ . . فقلنا ليس في السماء ولا على العرش ولا يوصف بيد ، والكلام صفة قائمة بذاته ليس عندنا منه شيء ، وأنه لا يتصوَّر نزوله . . امَّحىٰ من نفسه تعظيم المصحف ، بل لم يتحقق في سرِّه إثبات إلٓه ، وهذه جناية عظمىٰ على الأنبياء . . .

يعني أن هذا المسلك العقلي المحض يهدم ما اجتهد الأنبياء في تأسيسه ، وأخذ الناس به ،والأمر لا يحتاج إلى تأويل اليد بالنعمة أو القدرة ، ولا أن نشرح حديث القلوب بين أصبعين بأن القلوب بين أثرين من آثار الربوبية ، هما : الإقامة على الحق أو الإزاغة عنه . . إلى آخر ما ذكره أصحاب التأويل في المتشابهات ، وأصلح ما يقال : أمرُّوا هذه الأشياء كما جاءت ، ولا تتمحلُوا لها تأويلاً .

قال ابن الجوزي بعد شرح لرأيه :

ومن فهم هذا الفصل سلم من تشبيه المجسِّمة ، وتعطيل المعطِّلة ، ووقف على جادّة السلف الأول . .

إن نقاد ابن الجوزي اتهموه بالتناقض ! وهذا ظلم للرجل ، فهو شديد الحرص على حقائق الدين ، وعلى تنزيه الله وتمجيده ، وقد كان لزاماً عليه أن ينقذ الإسلام من صنفين خطيرين :

أصحاب التصوير المادي الساذج الذين يفهمون الألوهية بخيال الأطفال .

وأصحاب التجريد العقلي الذين يصوِّرون الألوهية مفهوماً يرتفع ويرتفع ، ولايزال يرتفع حتى يغيب عن الأنظار والأفكار . .

ومادام التأويل ضرورة في شرح بعض النصوص ، ومادام السلف والخلف قد اضطروا إليه جميعاً ، فنحن مع السلف نفوض رافضين التجسيم ، ومع الخلف نُؤَوِّلُ رافضين التعطيل . . !

السلوك الرشيد ..

وأرشد المسالك : **أن نهتم بالمحكم من التنزيل ، ونصرف اليه اهتمامنا ، وأن نتجاوز المتشابه ، فلا نحاول إعمال الفكر فيه ، إذ ليس للعقل مجال فيما وراء المادة .**

هذا مع تقرير أن الفارق بعيد بين ما يحكم العقل باستحالته وبين ما يحس العجز عن سبْر حقيقته ، فكون الواحد ثلاثة مستحيل ! أما كونه أزلياً أبدياً ، لا أول له ولا آخر ، فحق وإن غاب على العقل إدراكه .

أتراني أحسنت فيما انتهيت إليه ؟ لقد بذلت الجهد وأبرأت الذمة وخدمت الأمة ! وسيقول قوم : لا ، إنك انتهيت بنا إلى غير ما ننتظر ، ولهؤلاء الإخوة

أسوق هذه الملاحظات . .

إن أعداءً حلّوا مكان أعداء ، وأسلحةً شُرعت مكان أسلحة ، فلتتغير وسائل الدفاع !

كنت أستمع إلى الأستاذ في الفصل وهو يقرر موقف الإسلام من الفلاسفة ، ويذكر أبياتاً مطلعها : بثلاثة كفر الفلاسفة العدىٰ !!

وكان ينظر شزراً في ركن من الفصل كأن الفلاسفة قابعون فيه يستمعون إلى قرار الإتهام .

والثلاثة المذكورة : **القول بقدم العالم ، وإنكار الجزاء الحسِّي ، وإنكار علم الله بالجزئيات .**

إن هؤلاء المتهمين ماتوا ، ونبت مكانهم كفار لهم قضايا أخرىٰ . . ولقد انتهى سخف الجهمية والكرامية وأمثالهم ، ويمكن أن تدرس قضاياهم مع المخلَّفات الفكرية ، ويتجه الانتباه إلى ألوان أخرى من الانحراف جدَّت في العالم . .

والعقل الإنسانيُّ الآن يوم يؤمن بالله كما وصفه القرآن الكريم ، فسوف يزهد في كثير من الخلافات القديمة ، ولن يقف طويلاً أمام المتشابهات ، إنه عقل رفض البحث في كنه الضوء ، وأحسن الانتفاع بالضوء في مجالات كثيرة . .

نعم ، يوم يؤمن هذا العقل فسوف يتجاوز قضايا المصاطب التي خلقها الفراغ ! المهم أن نجعله يؤمن !

الصراع بين المسلمين وغيرهم قد انتقل إلى ميادين يجب أن ندرسها ونَستعدَّ لها بعقل يفهم الوحي والكون معاً .

وتوجد بين الشباب المسلم طوائف غريبة ، فيها ورثةٌ لفكر الخوارج وفقه

الظاهرية ، وخيال المجسِّمين ! وفيها من يرفع خسيسته بشتم الأئمة تحت علم السنة ، ومن يعيد الكهانة القديمة باسم دين الفطرة ، ومن ينشر البداوة ويحارب التقدم الحضاري باسم التقوىٰ والمحافظة على معالم الإسلام . .

ونترك النزاع باسم العقيدة إلى النزاع باسم العبادة . .

خـــــــلاف الفقهـــــــــــــاء . .

إن الخلاف الفقهي في الفروع قديم قدم الاسلام نفسه ، وهو خلاف لابد منه ، ولا خوف على الدين من بقائه إلى قيام الساعة !

كل ما نبغيه أن يكون هذا الخلاف في حدود الفكر العلمي الاسلامي والضمير الراغب إلى الله الحريص على مرضاته . .

وقد أجمع المسلمون على أن الكتاب والسنة دعائم التشريع الأولى ، ولم يقل مسلم في المستقدمين أو المستأخرين : **إن سنة محمد ﷺ تهمل ، وإنها ليست مصدراً للتشريع !**

وما يردده الآن بعض الشواذ منكر قبيح ، ودلالة خبال وفسوق . .

وقد تتفاوت الأنظار في تقدير المرويات ، والحكم بقبولها أو رفضها ، ولا يعني هذا ترك السنة ، فإن ما قرر العلماء ثبوته موضع الاحترام . .

وعندما يترك فقيه حديثاً من أحاديث الآحاد لدليل آخر أقوى منه في الكتاب أو السنة ، فهو لا يتهم بترك السنة ، وغاية ما يوصف به أنه شديد التحري في الاثبات ، وأنه ما ترك قط حديثاً يعتقد أنه صحيح .

لما ألفت كتابي « **عقيدة المسلم** » **لم أذكر شيئا عن المهدي المنتظر** ، وعندما خوطبت في ذلك ، وقيل لي : لِمَ لَمْ تذكره في علامات الساعة ؟ قلت : **من محفوظاتي وأنا طالب أنه لم يرد في المهدي حديث صريح** ،

وما ورد صريحاً فليس بصحيح ! وإذا كان ما ورد لم ينهض إلى تكوين حكم ثابت ، فكيف أجعله عقيدة تفصل بين الكفر والإيمان ؟ وأردفت ضاحكاً : المشكلة الآن ليست في المهدي المنتظر ، إنما هي في المهدي غير المنتظر ، الذي يفاجئنا بظهوره بين الحين والحين ، ويزيد العدد في إحصاء الدجالين . .

ومن تجاربي مع السنة الشريفة أن المسلمين أخطأوا مرتين في تقديرها :

المرة الأولى : عندما روَّجوا للمرويات الضعيفة ، وفسحوا لها في تقاليدهم وأخلاقهم وعباداتهم أحياناً .

والمرة الثانية : عندما عجزوا عن وضع الصحيح موضعه الحقيقي ، ولم يحرروا المراد منه تحريراً ذكياً .

ولن أنسى أبداً أن رسالة طبعت في مكة المكرمة تؤكد أن الرسول ﷺ أغار على الناس دون دعوة ! وشنَّ الحرب ليأخذ الناس على غرَّة !! وأخرى تفسّر الغزوات بأنها حرب هجومية ابتداء .

والمشتغلون بالسنن من هذا الصنف الغبيِّ بلاء على الكتاب والسنة معاً ، وهم طراز مقلق للجهل المركَّب .

وقد تكوَّن عندي شعور ينمو على مرّ الأيام ، قوامه : أن ضعيف الصلة بالقرآن الكريم ، المحجوب عن هداياته وأنواره لا ينبغي أن يشتغل بالسنة ويستنبط الأحكام منها ، فإنه قلما يهدى إلى الحكمة مع صدوده عن الينبوع الأول للحكمة ، وهو كتاب الله سبحانه وتعالى .

ولست أعني بضعف الصلة قلة التلاوة ، وإنما أعني ضعف التدبُّر ، وبلادة الشعور ، وعدم إدراك الدلالات البعيدة للكتاب العزيز !

ولما كنت أول عهدي بالفقه ، قد درسته على مذهب أبي حنيفة ، فإني لا أزال أرى أن ظاهرة القرآن أولىٰ بالتقديم من الآثار الأخرى ، وأن التحريم

لابد فيه من قاطع .. إلخ .

ومع هذا الميل الفقهي ، فلست أقطع الطريق على غيري من أصحاب العقول العلمية !

النص القرآني .. ورواية الآحاد ..

ويعجبني قول الشيخ محمد رشيد رضا :

التفرقة بين ما ثبت بنص القرآن من الأحكام وما ثبت بروايات الآحاد وأقيسة الفقهاء ضرورة ، فإن من جحد ما جاء في القرآن يحكم بكفره ، ومن يجحد غيره ينظر في عذره ! فما من إمام مجتهد إلا وقد قال أقوالاً مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة لأسباب يعذر بها ، وتبعه الناس على ذلك ، ولا يَعُدُّ ذلك أحد خروجاً من الدين ، حتى من لاعذر له في التقليد ، فما بالك في مخالفة بعضهم بعضاً في الأقوال الاجتهادية التي تختلف فيها أقيستهم ؟)

وقد تسأل : ما العذر في ترك حديث صحَّ ؟ والجواب : نص آخر أقوى منه مثلاً ! فالمالكيه لم يحكموا إلا بتحريم ما ورد في الآية :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ ﴾ (البقرة : ١٧٣) .

وماعدا ذلك فهو مباح ، وقد يكره فقط رعاية لبعض المرويات الواردة في كتب السنة .

والأحناف أوجبوا الزكاة في كل ما خرج من الأرض إمضاء لقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَاكَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ (البقرة : ٢٦٧)

ورفضوا قصر الزكاة على محاصيل معينة مما ورد في السنن . .

والشافعية ردُّوا من السنن ما يفيد أن لمس المرأة مثلاً لا ينقض الوضوء !

والحنابلة ردُّوا ما ورد من أن رضاع الكبار يحرّم ، وأمضوا فقط الرضاع الذي ينبت اللحم ويشدُّ العظم . .

وهذه نماذج سريعة في ذلك العرض المحدود . . إن المرويات كثيرة ، والأفهام أكثر ، ووجهات النظر الفقهية لا تبدأ من فراغ ، ولننظر مثلاً في هذه القضية . . عقد بيع تضمَّن شرطاً ! إن فقهاء قالوا بفساد البيع والشرط ، وآخرون قالوا بصحتهما معاً ، ومن الفقهاء من قال بصحة البيع وفساد الشرط ، وثمت أقوال أخرىٰ ، قال ابن رشد في « بداية المجتهد » :

والأصل في اختلاف الناس في هذا الباب ثلاثة أحاديث ، أحدهما : حديث جابر « ابتاع مني رسول الله ﷺ بعيراً ، وشرط ظهره إلى المدينة » !
والحديث الثاني : حديث بريرة ، قال :
« كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط » وهو متفق عليه :
والثالث : حديث جابر :

« نهى رسول الله ﷺ عن المحاقلة[1] والمزابنة[2] والمخابرة[3] والمعاومة[4] والثنيا[5] ورخص في العرايا[6] » وهو في الصحيح .

---

(١) هي بيع الطعام في سنبله كما قال أبو عبيد ، أو بيع الزرع ـ وهو مجهول القدر ـ بثمن محدد نقداً كان أو سلعاً .

(٢) حرب زبون فيها تدافع شديد ، والمراد هنا . بيع العنب بالزبيب مثلا أو الرطب بالتمر ـ وهذا مظنة الربا ، ولذا حرمه الشارع مع رغبة المتبايعين في إمضائه .

(٣) إجارة الأرض ببعض ما يخرج منها كجعل إيجار الفدان ثلاثة قناطير قطن .

(٤) المعاومة من العام كالمشاهرة من الشهر ، وأساس المنع الجهالة .

(٥) الثنيا كالثُّريًا أو كالعلْيا بمعنى الاستثناء أن يبيع شيئاً ويستثني بعضه . وهو موضع الشاهد هنا .

(٦) العرايا جمع عريَّة ، يقصد البلح وهو في النخل لما ينضج وللفقهاء فيه كلام طويل .

ومن هذا الباب ما روي عن أبي حنيفة أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع وشرط .

فاختلفت العلماء لتعارض هذه الأحاديث ، فقال قوم : **البيع فاسد والشرط فاسد** ، وممن قال بهذا : **الشافعي وأبو حنيفة** .

وقال قوم : **البيع جائز والشرط جائز** ، وممن قال بهذا القول : **ابن أبي شبرمة** .

وقال قوم : **البيع جائز والشرط باطل** ، وممن قال بهذا القول : **ابن أبي ليلى** .

وقال **أحمد بن حنبل** : **البيع جائز مع شرط واحد** ، وأما مع شرطين فلا . .
ولمالك تقسيمات طويلة في الشروط التي تبطل والتي تجيز ، وليس هنا شرح كل مذهب ودليله الذي استند إليه من السنة . .

والفقهاء حين يجتهدون يَتَصبَّبون عرقاً ولا يعبثون ، ويتحرَّوْن رضاء الله لا رضاء حاكم أو محكوم ، وإذا ردَّ أحدهم حديثاً فلدليل آخر أقوى ، قد يكون حديثاً أجود عنده ، أو فهماً أصْوب في نص آخر ، ولا يمكن وصف هذا المسلك بأنه ردٌّ للسنة الشريفة . . .

ألا ترى أن **عمر بن الخطاب** عندما ردَّ حديث **فاطمة بنت قيس** في سكنى المطلقة ثلاثاً ، قال ـ تصويباً لعمله ـ : لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أم نسيت !

أي : أن **الردَّ للراوي لا لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام !** وسواء أخطأ عمر في اجتهاده أو أصاب فلا موضع للشغب على صدق اتباعه للنبيِّ ﷺ وحرصه على سنته . .

وقد كنت أرى الطريق الأفضل في فهم الأحكام الفرعية سوق النص أولاً من الكتاب والسنة ، ثم إتباعه بأفهام الفقهاء الكبار ، ومن يليهم من أهل العلم .

ثم قرأت كلاماً آخر للشيخ الأديب الفقيه علي الطنطاوي تعليقاً على كلمة جميلة لابن الجوزي في منع التقليد ، نذكرها أولا ، ثم نذكر التعليق : قال ابن الجوزي ينصح طالب العلم : (. . **ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم ، ومن أقبح النقص : التقليد ، فإن قويت همته رَقَّته إلىٰ أن يختار لنفسه مذهباً ولا يتمذهب لأحد ، فإن المقلِّد أعمى يقوده من قلَّده . .**)

قال الشيخ علي :

(أي يستعد بالتعلُّم والدأب حتى يصل إلى القدرة على الاجتهاد وترك التقليد ! لا أن يجتهد لنفسه وهو لا يعرف من عُدَّة الاجتهاد إلا حفظ أحاديث ، وقدرة على معرفة مكان وجودها ، والبحث في كتب الرجال عن أحوال رواتها) .

قـــال :

(والناس في هذه المسألة بين مُفْرِطٍ في اتباع المذاهب ، لا يفرق بين الحكم المؤيد بالنص الصريح وماهو رأي للفقيه ، وبين مُفَرِّطٍ فيها ، يتركها جملة ويحاول أن يأخذ من الأحاديث رأساً ، ولو لم يكن عنده أدوات الأخذ من الحديث)

قـــال :

والحق أنه علىٰ المسلم أن يتفقه أولاً في مذهب معين ، فيعرف أحكام دينه ، ثم ينظر في دليلها ، ويحاول أن يتعلم ما يعين على معرفة طرق الاستدلال وقوة الدليل ، ثم ينظر ، فإن رأىٰ دليلاً ثابتاً أقوى من دليل مذهبه أخذ به ، وقد بين ابن عابدين في أول الحاشية أن الحنفيَّ المقلِّد الذي يجد

حديثاً صحيحاً على خلاف مذهبه ، عليه أن يأخذ به ، لاسيما في العبادات ، وليس يخرج في ذلك عن كونه حنفياً ، والله قد أوجب على المسلم اتباع الكتاب والسنة ، ولم يلزمه بمذهب من المذاهب الأربعة ولا غيرها ، وما التقليد إلا رخصة للعاجز عن الأخذ من الكتاب والسنة .

والمتأخرون الذين قالوا باتباع أحد المذاهب الأربعة ، إنما قالوا ذلك لما رأوا غلبة العجز على الناس ، ولئلا يصير الأمر فوضى ، فيدعي كل واحد أنه صار أبا حنيفة أو الشافعي كما هو الحال الآن) .

إنني ملت إلىٰ هذا الرأي ، وإن كان لا يختلف في نتيجته عن مُقْتَرحي الأول ، فالمصير هنا أو هنا هو كتاب الله وسنة رسوله . . ! والذي دفعني إلى ترجيح كلام علي الطنطاوي هو ما بلوته ممن يشتغلون بالسنن مع قصور الفقه وضعف الخلق .

إن نبينا عليه الصلاة والسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وهؤلاء الناس يذهبون بأنفسم وَيَتَلَمسُون للبرآء العيب ، ويدعون العلم ، ويتهمون أكابر الفقهاء بالجهل ومشاقّة الرسول ﷺ . .

وقد تبنَّوْا أحكاماً معينة في قضايا صغيرة أو كبيرة ، وخرجوا بها على الناس فزادوا المسلمين فرقة وزادو الطين بلَّة . . . !

ولما كان الإسلام يمرّ بفترة عصيبة من تاريخه الطويل ، ولما كان ضغط الأديان الباطلة والمذاهب الجائرة شديداً عليه ، ولما كان أحوج ما يكون إلى أولي النهى والحصافة يعرضون تعاليمه ، ويحسنون الذود عنه ، فإن هؤلاء انطلقوا بقصورهم وجراءتهم يتحدثون عنه فأساؤوا وأسفُّوا ووقفوا سيره وألحقوا به التهم . . !

إن تاريخنا الثقافي عامر بالرجال الراسخين في العلم ، ولهؤلاء الرجال نظرات لها وزنها في فلسفات العالم وما يسوده من تيارات ، ولهم كذلك في

فقه الكتاب والسنة مذاهب محترمة ، وقد استقر الأمر في ديننا أنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، فلم لا ننتفع بهذه الحصيلة الرائعة من ثقافتنا الإسلامية ونحن نواجه في فلسفة الأخلاق والقانون والحضارة ما لابد من ردِّه بالحسنىٰ ؟؟

قد تسألني : ماذا تعني ؟ أقول لك : إنني لا أبخس عظيماً حقه لرأي ارتآه قد يخالفه فيه الآخرون ولا أرىٰ حرجاً في تجاوز ما يقال عن خطئه ، والاستفادة من خيره الكثير بعد ذلك !

إن ابن حزم مخطىء في إنكار القياس ، والإغراق في الأخذ بالظاهر ، بيد أنه عالم فحل في مقارنة الأديان ، وفي الاستنباط من الأثر ، وله عبقرية في هذا الميدان لا معنى لإهالة التراب عليها .

وأبو حامد الغزالي يعترف علماء الغرب أنه ألحق بفلسفة اليونان دماراً محققاً في كتابه « تهافت الفلاسفة » وهو أصولي وفقيه ، وأديب ومتحدث في التربية والأخلاق لا يشقّ له غبار ! كيف أتناسىٰ كل هذه المواهب لأنه أخطأ في بعض المرويات . .

تقول : إنه من أهل التأويل !! إن مفكري السلف والخلف جميعاً اضطروا إلى التأويل ، وإن كان السلف أكثر تفويضاً وأقل تأويلاً .

لقد تتلمذت على كتابات لابن الجوزي وابن تيمية والغزالي وابن رشد ، وانتفعت من صواب أولئك كلهم ، وتركت ما تعقّبهم الآخرون فيه بحق !

وعندي أن تأويل الغزالي حيناً لايخدش منزلته ، كما أن إنكار ابن تيمية للمجاز أو توقفه في نفي الجسمية لا يخدش منزلته . .

لماذا أذهل عن الجهود العلمية الجبارة التي خلّفوها بعدهم في نصرة الإسلام وردِّ خصومه والنصح لأمته ؟

لماذا أتوقع العصمة من البشر ، وأجعل الأخطاء القليلة التي تنسب إليهم

جبالاً تنهدم فوق رؤوسهم وتأتي على ذكراهم ، ما أحوجني وإياهم إلى مغفرة الله وأحوج الإسلام بعد ذلك إلى جهاد أبنائه على اختلاف معادنهم ومنازعهم فى الذبِّ عنه ، وردِّ الذئاب الشرسة التي تغير عليه في هذا العصر . .

التعـــــاون في المتفـــق عليـــــه ..

إن ما يتفق المسلمون عليه كثير ، فلماذا لا يتعاونون على تحقيقه ؟ أحسب أنهم لو اجتمعوا على ذلك لما بقي لديهم وقت للخلاف على الفرعيات ، ولو اختلفوا عليها ما بقي لديهم وقت لتحويل الخلاف إلى حرب باردة أو ساخنة . . ! !

إنني أحب أهل الحديث ، والدارسين لعلومه ، وذلك فرع من حبي الجمِّ لصاحب الرسالة ، قمة القمم ونبيِّ الأنبياء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه ، وأرىٰ أن هذا الجانب من ثقافتنا الإسلامية لابد منه ولا غنى عنه . .

لكن من قال : **إن رجال الفقه ومجتهديه العظام جانب آخر يغاير الأول ، وإن الفقهاء سبب فرقة الأمة ، وبعدها عن ينابيع الإسلام الأولى ؟**

إن هذا الكلام ضرب من اللغو ! ولقد تتبعت خلافاً في عدد من القضايا نشب بين المشتغلين بالسنة المعْنيِّين بالرواية ، فوجدته لا يقل عما يجري في آراء الفقهاء من تفاوت .

فابن حزم يوقع الطلاق الثلاث ، ويرى هذا الحكم ما تدل عليه السنة ، ولو كان بكلمة واحدة .

وابن تيمية يرى غير ذلك ، ويعد الثلاث واحدة ما دامت في المجلس أو بلفظ واحد ، ويبني على ذلك جواز الرجعة ، بينما يرىٰ ابن حزم أنه لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره . .

وابن حزم يرى الغناء ـ الحسن ـ مباحاً ، ويجيز بيع آلاته من معازف ومزامير ويرى ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم تحريم هذا كله . .

ورأيت خلافاً بين الشيخ الألباني ـ وهو محدث كبير ـ وبين الإمامين ابن تيمية وابن القيم ، فالألباني يرىٰ الغسل يوم عرفة بدعة ، ويراه ابن تيمية ثابتاً عن رسول الله ﷺ ! والألباني يرىٰ الجمع بين الصلاتين في السفر ثابتاً ! ويقول ابن القيم : لم يكن ذلك من هديه ﷺ .

ويقول ابن تيمية : إن الوضوء من مسِّ الذكر مستحب ، ويقول الألباني بل واجب !

ولو تتبعنا ما اختلف فيه المعتمدون على الأحاديث لطال بنا الإحصاء .

وآخر ذلك ما قاله الشيخ الألباني من حرمة الذهب المحلَّق ـ المستدير ـ على النساء اعتماداً على حديث لا يصح ، وفهم لا يتعيّن كما يرىٰ معارضوه ، مع أن الإجماع على حلِّه لهن . . !

ماذا يعني هذا كله ؟ يعني أن اختلاف الآراء وتباين المذاهب شيء لا يمكن تجاهله ، ولا الفرار منه ، فتلك سنة الله في الأنفس والأذهان .

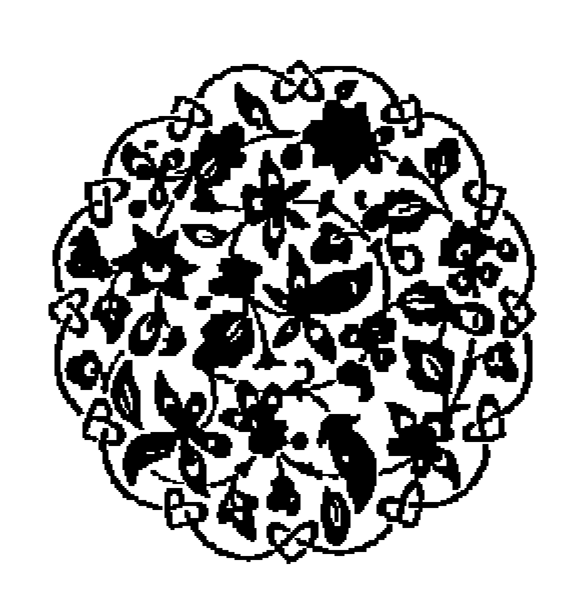
والخلاف لا يحل بالعصيِّ ، ولا بالسفاهة ! وإنما يحلُّ بالتعاون على ما اتفقنا عليه والتماس العذر للمخالف إذا كان أهلًا للبحث والاجتهاد .

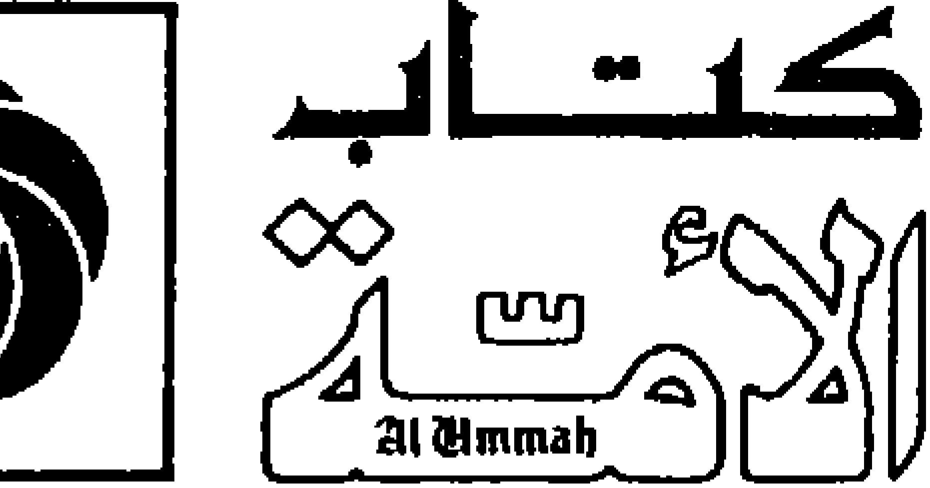
إن خطأ المجتهد مأجور . . وينبغي اغلاق الأبواب أمام التافهين حتى لا يتكلم في دين الله إلا أهل الذكر . .

ومن طلب وجه الله قنع بما يحسن ، وحرس الإسلام في الميدان الذي يعمل به !

وكم من ميدان عمل الآن يخلو من الرجال ، لأن الرجال يتهارشون في ميدان الكلام حول بعض الفروع التي لا تجدي على الإسلام شيئاً .

الفهـــــــرس






هاتف : ٤١١٢٠٠
تلكس : ٤٩٩٩ الأمة د هـ
برقياً : الأمة الدوحة
ص.ب : ٨٩٣ الدوحة. قطر

ثمن النسخة

قطر	٣ ريالات
السعودية	٣ ريالات
الامارات	٣ دراهم
عمان	٢٠٠ بيسة
البحرين	٢٠٠ فلس
الكويت	٢٠٠ فلس
العراق	٢٠٠ فلس
اليمن الشمالي	١٥٠ فلساً
الأردن	١٥٠ فلساً
اليمن الجنوبي	١٥٠ فلساً
سوريا	١٥٠ قرشاً
لبنان	١٥٠ قرشاً
مصر	١٥٠ مليما
ليبيا	٢٠٠ درهم
السودان	١٥٠ مليما
تونس	٢٠٠ مليم
الجزائر	ديناران
المغرب	درهمان

○ في باقي دول آسيا وافريقيا نصف دولار آمريكي أو ما يعادله

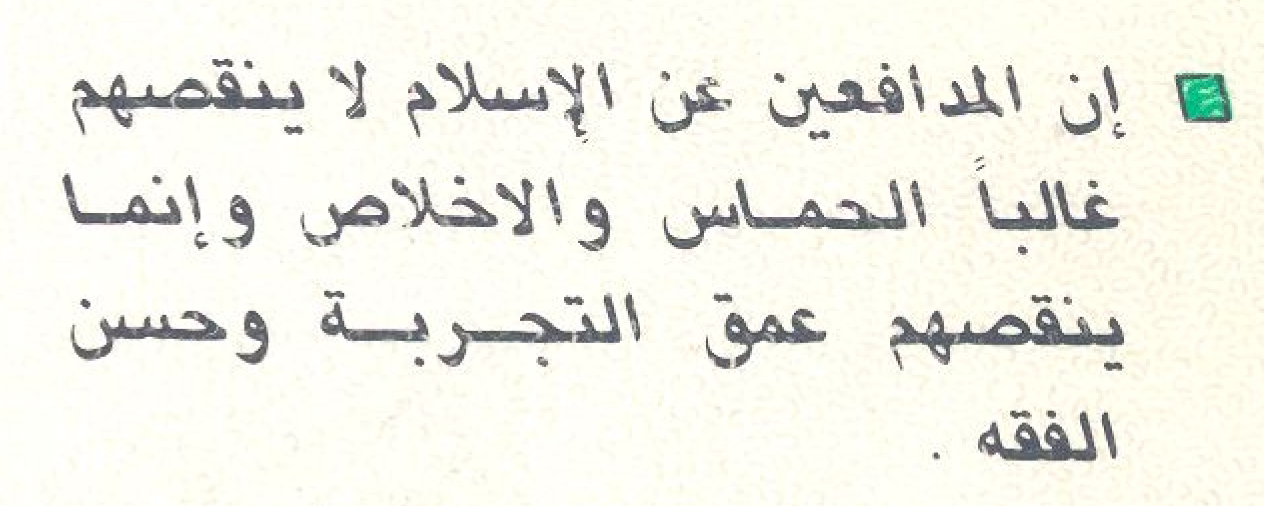
○ في الأمريكيتين وأوربا واستراليا وباقي دول العالم دولار آمريكي أو ما يعادله .

يطلب من وكلاء توزيع مجلة الأمة



محمد الغزالى

- ولد عام ١٩١٧م .
- حفظ القرآن في سن مبكرة .
- تخرج في الأزهر عام ١٩٤١م .
- ألّف ٣٦ كتاباً .
- أحد رواد الدعوة الاسلامية الحديثة .
- يرى الاستفادة من جميع الاتجاهات الفكرية على أساس من فقه سليم للكتاب والسنة .



- إن المدافعين عن الإسلام لا ينقصهم غالباً الحماس والاخلاص وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه .

- في تاريخنا الثقافي والسياسي زاد كافٍ لمن كان له قلب ، غير ان هزائم شتى تصيب المجاهدين في سبيل الله لضعف التجربة وقلة الخبرة ، أو لفقر شديد في العلم الصحيح بكتاب الله وسنة رسوله .

- إن الاستعجال كان وراء متاعب كثيرة وخسائر ثقيلة للدعوة الاسلامية بل ربما زاد خصومها تمكيناً وضراوة .



مطابع الدوحة الحديثة